الفصل الثاني

أهم المظاهر الاجتماعية والسياسية في ذلك العصر

(١) المظاهر الاجتماعية والسياسية

(١-١) انقسام الدولة

أهم مظهر يأخذ بالأبصار في ذلك العصر ما حصل للدولة الإسلامية من الانقسام؛ فقد كانت المملكة الإسلامية كلها في العصر العباسي الأول إذا استثنينا الأندلس وبعض بلاد المغرب تُكوِّن كتلة واحدة، وتخضع خضوعًا تامًّا للخليفة في بغداد، هو الذي يعين ولاتها، وإليه يجبى خراجها، وإليه تَرجع في إدارتها وقضائها وجندها وحل مشاكلها، وتدعو له على المنابر وتضرب السكة باسمه، ونحو ذلك من مظاهر السلطان. ثم أخذ هذا السلطان يقل شيئًا فشيئًا بضعف الخلافة حتى تمزقت المملكة كل ممزق.

وأخذت الأقطار الإسلامية تستقل عن بغداد شيئًا فشيئًا، وأخذ يخشى ولاتها وأمراؤها بعضهم بأس بعض، ويضرب بعضهم بعضًا؛ فصارت المملكة الإسلامية عبارة عن دول متعددة مستقلة، علاقة بعضها مع بعض علاقة محالفة أحيانًا وعداء غالبًا، وأصبح لكل دولة مالها وجندها وإدارتها وقضاؤها وسكتها وأميرها، إن اعترف بعضها بالخليفة في بغداد حينًا من الزمن، فاعتراف ظاهري ليس له أثر فعلي! وسودت صحف التاريخ بالقتال المستمر بين هذه الدول، وشغلوا بقتال أنفسهم عن قتال عدوهم؛ ومن أجل هذا طمع فيهم الروم يغزونهم كل حين ويستولون على بلادهم شيئًا فشيئًا، حتى الزنج والحبشة كانوا يغيرون على الدولة الفينة بعد الفينة فينهبون ويسلبون، ولم تعد المملكة الإسلامية مخشية الجانب كما كانت أيام وحدتها.

ففي سنة ٣٢٤هـ كانت البصرة في يد ابن رائق، وفارس في يد علي بن بويه، وأصبهان والري والجيل في يد أبي علي الحسن بن بويه، والموصل وديار بكر وربيعة في أيدي بني حمدان، ومصر والشام في يد الإخشيديين؛ وإفريقية في يد الفاطميين، وخراسان وما وراء النهر في يد السامانيين، وطبرستان وجرجان في يد الديلم، وخوزستان بيد البريدي، والبحرين واليمامة وهَجَر بيد القرامطة، ولم يبق للخليفة إلا بغداد وما حولها، وحتى هذه لم يكن له فيها إلا الاسم.

وقد أجاد المسعودي في ملاحظته وجه الشبه بين حالة المملكة الإسلامية بعد هذا الانقسام، ومملكة الإسكندر المقدوني بعد وفاته فقال: «ولم نعرض لوصف أخلاق المتقي والمستكفي والمطيع ومذاهبهم؛ إذ كانوا كالمولَّى عليهم، لا أمر ينفذ لهم، أما ما نأى عنهم من البلدان فتغلَّب على أكثرها المتغلبون، واستظهروا بكثرة الرجال والأموال، واقتصروا على مكاتبتهم بإمرة المؤمنين والدعاء لهم، وأما بالحضرة — بغداد — فتفرد بالأمور غيرهم فصاروا مقهورين خائفين، قد قنعوا باسم الخلافة ورضوا بالسلامة. وما أشبِّه أمور الناس في الوقت إلا بما كانت عليه ملوك الطوائف بعد قتل الملك الإسكندر بن فيلبس دَارَا ملك بابل إلى ظهور أردشير بن بابك، كلٌّ قد غلب على صقعه يحامي عنه، ويطلب الازدياد إليه مع قلة العمارة وانقطاع السبل، وخراب كثير من البلاد، وذهاب الأطراف، وغلبة الروم وغيرهم من الممالك على كثير من ثغور الإسلام ومدنه.»[١]

كان كثير من الدول يعترف بالخلافة وسلطتها الدينية، فهي إذا استقلت سياسيًّا ومدنيًّا رأت مما يزيدها سلطة وقوة اعترافها بالخليفة واعتراف الخليفة بها، كما فعل عضد الدولة بن بويه مثلًا لما فتح كرمان، فقد استرضى الخليفة فأنفذ إليه الخليفة عهده وخِلَعه من الطوق والسوارين.[٢]

ومع مضي الزمن وضعف الخلافة قطعوا هذه الصلة أيضًا وتلقبوا بإمرة المؤمنين أو بالخلفاء. وأول من فعل ذلك الفاطميون، فبعد أن فتحوا القيروان سنة ٢٩٧هـ تلقبوا بالخلافة، وشجعهم على ذلك أنهم شيعيون يقولون باغتصاب الأمويين والعباسيين حقهم في الخلافة، فلما تملكوا حققوا نظريتهم في أحقيتهم؛ فتسموا بالخلفاء، فلما رأى الأندلسيون ذلك قلدوهم مع أنهم سنيون، فتلقب عبد الرحمن الناصر أمير الأندلس بأمير المؤمنين نحو سنة ٣٥٠، وكانوا يلقَّبون من قبل بالأمراء، وببني الخلفاء. قال المقري: «هو أول من تسمى منهم بالأندلس بأمير المؤمنين عندما التاث أمر الخلافة بالمشرق، واستبد موالي الترك على بني العباس، وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة ٣١٧هـ، فتلقب بألقاب الخلافة.»[٣]

وهنا يصح لنا أن نتساءل سؤالين: الأول: هل كان انقسام المملكة الإسلامية إلى أقسام على النحو الذي أبنَّا في مصلحة الأقطار الإسلامية أو في غير مصلحتها؟ قد يبدو هذا السؤال غريبًا؛ لأن الناس اعتادوا أن يقيسوا رقي المملكة الإسلامية بوحدتها وضعفها بانقسامها، وبعبارة أخرى ربطوا رقي المملكة الإسلامية بحال الخليفة؛ فإذا كان الخليفة قويًّا باسطًا سلطانه على الأقطار كلها، فالدولة قوية، وإلا فهي ضعيفة.

وفي رأيي أن هذا مقياس غير صحيح؛ فقد يضعف الخليفة وتصلح الأقطار والعكس. وهذا ما حدث فعلًا، ففي رأيي أن كثيرًا من الأقطار الإسلامية كانت بعد استقلالها عن الخلافة في بغداد خيرًا منها قبله؛ فيظهر لي أن مصر تحت حكم الطولونيين والإخشيديين والفاطميين كانت حالتها أسعد منها أيام ولاة بغداد قبل الطولونيين، وكذلك حكم السامانيين لفارس وما وراء النهر كان خيرًا من حكم من سبقهم من ولاة العباسي، وربما كان شر أيام بغداد هو هذه الأيام التي كانت تخضع فيها للخلفاء، وما حولها مستقل عنها.

فإذا قسنا الأمور بمصلحة المحكومين لا الخلفاء — وهو في نظري أصح مقياس — كان هذا الانقسام في مصلحة الأقطار المستقلة في أغلب الأحوال، وعلى الأقل كان في مصلحتهم نسبيًّا؛ أعني بالنسبة للحالة السيئة التي كانوا عليها قبل استقلالهم؛ فالإدارة وانتفاع كل قطر بماله يصرفه في مصالحه والعدالة النسبية في توزيع الثروة ونحو ذلك؛ كلها كانت خيرًا منها أيام سلطة الخلفاء الضعفاء ومن يتولاهم من الأتراك الأقوياء.

والأندلس لما أتيح لها الاستقلال في بدء العصر العباسي، ومنعَتْها قوتُها وبُعدها من أن يُخضعها العباسيون لحكمهم، أزهرت وتمدَّنت وساهمت في بناء المدينة، في العلم والأدب والحضارة، وما أظن أنها كانت تبلغ هذا المبلغ لو عاشت في أحضان الدولة العباسية.

نعم! إنهم — وقد تفرقوا — أصبحوا أضعف أمام العدو الخارجي كالروم، وصار يحمل العبءَ كله دويلةٌ مستقلة كدولة الحمدانيين، وكان يحمل العبء قبلُ المملكةُ الإسلامية كلها، فمن هذه الناحية كان هذا مظهر ضعف للدولة، خصوصًا والدول المستقلة لم تستطع أن تتفاهم، وترتب بينها نظامًا مشتركًا يضمن دفع غارة الأعداء الخارجي؛ لأن هذا النظام يتطلب رقيًّا في الفكر، وضبطًا للعواطف، وتقديمًا للمصلحة العامة على الخاصة؛ وهي درجة لم يستطع المسلمون الوصول إليها حتى الآن! إنما كان

علاقة كل دولة مسلمة بجارتها المسلمة علاقة عداء غالبًا، فلم يتمكنوا من التفاهم على مصالحهم الداخلية فضلًا عن المصالح الخارجية، ولو استطاعوا — مع استقلالهم — أن ينظموا شئونهم مع من بجوارهم، وينظموا صفوفهم أمام عدوِّهم الخارجي لبلغوا الغاية. ولكني مع هذه الشرور كلها أرى أن حالة كثير من البلدان الإسلامية نالت باستقلالها من الطمأنينة والرخاء ما لم تنعم به في الأيام الأخيرة لتبعتها بغداد.

والسؤال الثاني: ما موقف العلم والأدب بعد هذا الانقسام؟ هل أثر فيهما أثرًا حسنًا أو سيئًا؟ وهل انحطَّ العلم والأدب بانحطاط خلفاء بغداد أو رَقِيَا باستقلال الأقطار؟

أرى أن العلم والأدب رقيا عما كانا عليه قبل، وأنه لم يؤثر فيهما كثيرًا ضعف خلفاء بغداد؛ ذلك أن حركة الترجمة التي نقلت ذخائر الأمم المختلفة وخصوصًا الأمة اليونانية، وضعت أمام أعين المسلمين ثروة علمية هائلة باللسان العربي، فكانت الخطوة الثانية أن تتوجه إليها الأفكار العربية تفهمها وتشرحها وتهضمها وتبتكر فيها وتزيد عليها؛ وهذا ما فعله عصرنا هذا كما سيأتي بيانه. ومن جهة أخرى كان وضع السلطة كلها في يد الخليفة يجعل بغداد المركز العلمي الوحيد، أو على الأقل المركز العلمي والأدبي الهام، وما عداه فاتر ضعيف؛ فكان من تفوق في علم أو أدب فلا أمل في شهرته ونبوغه، وذيوع صيته وثروته، إلا إذا رحل إلى بغداد وتقرب بعلمه وأدبه إلى خلفائها وأمرائها.

فلما استقلت الأقطار أصبحت كل عاصمة قطر مركزًا هامًا لحركة علمية وأدبية، فأمراء القطر يعطون عطاء خلفاء بغداد، ويُحَلُّون عاصمتهم بالعلماء والأدباء، ويفاخرون أمراء الأقطار الأخرى في الثروة العلمية والأدبية، كما يتفاخرون بعظمة الجند وعظمة المباني. فبدل أن كان للعلم والأدب مركز واحد هام أصبحت لهما مراكز هامة متعددة، وأصبح علماء مصر — مثلًا — يساجلون علماء بغداد، وأدباء الشام يفخرون على أدباء العراق، وهذا من غير شك يشجع الحركة العلمية والأدبية ويقويها ويرقيها.

وحتى نرى الأمراء الأتراك الذين لا يحسنون العربية يحبون أن تزَّين قصورهم بالعلماء والأدباء.

ومن ظريف ما يحكى في ذلك أن بجكم التركي كان بواسط، وكان من المقربين إليه أبو محمد بن يحيى الصُّولي؛ وكان بجكم لا يحسن العربية، فاستدعى يومًا الصوليَّ

وقال له: إن أصحاب الأخبار رفعوا إلي أني لما طلبتك من المسجد — وكان الصولي يقرأ درسًا في المسجد — قال الناس: أَعْجَلَه الأمير ولم يتمَّ مجلسنا، أفتراه يقرأ عليه شعرًا أو نحوًا أو يسمع من الحديث؟ — يقولون ذلك تهكمًا ببجكم لأنه لا يحسن العربية — ثم قال بجكم ردًّا على هذا: «أنا إنسان، وإن كنت لا أحسن العلوم والآداب أحب ألا يكون في الأرض أديب ولا عالم ولا رأس في صناعة إلا كان في جنبتي وتحت اصطناعي وبين يدي لا يفارقني.»[٤]

ولعله بهذا القول يعبر عما في نفس كل أمير في كل إقليم.

ومن أجل هذا كان مؤرخ العلم والأدب قبل الاستقلال يجد نفسه أمام ثروة كبيرة علمية وأدبية في العراق، ثم لا يجد إلا نتفًا قليلة منها في تاريخ غيره، أما بعد الانقسام فلكل إقليم شخصية متميزة في علمها وأدبها.

على أنَّا إن سلَّمنا فرضًا أن الحياة السياسية بعد الانقسام كانت شرًّا منها قبله، فلا نسلِّم ذلك في العلم والأدب. والتاريخ يرينا أن الحالة العلمية لا تتبع الحالة السياسية ضعفًا وقوة؛ فقد تسوء الحالة السياسية إلى حدٍّ ما وتزهر بجانبها الحياة العلمية؛ ذلك لأن الحياة السياسية إنما تحسن بتحقيق العدل ونشر الطمأنينة بين الناس، ومع هذا فقد يحمل الظلم كثيرًا من عظماء الرجال وذوي العقول الراجحة أن يفروا من العمل السياسي إلى العمل العلمي؛ لأنهم يجدون العمل السياسي يعرِّضهم لمصادرة أموالهم، وأحيانًا إلى إزهاق أرواحهم، على حين أن العمل العلمي يحيطهم بجو خاص هادئ مطَمْئن، ولو كان الجو العام مائجًا مضطربًا، وكذلك كان الحال في تاريخ كثير من علماء المسلمين، جرَّبوا الوزارة وولاية الأعمال فتعرَّضوا للخطر فهربوا إلى العلم فنجحوا.

وأيضًا فقد وقر في نفوس الخلفاء والأمراء حرمة العلماء، متى لم يتعرضوا للسياسة من قريب ولا بعيد، وهذا يمكنهم من بحثهم العلمي في هدوء وطمأنينة على الرغم مما يحيط بهم من فوضى واضطراب. لقد كان الفارابي مثلًا في جو سياسي مضطرب سواء كان في حلب بين الحمدانيين، أو في بغداد في حكم الأتراك، ومع ذلك خلق لنفسه، ولمن حوله من تلاميذه حمى يُرقَّى فيه علمه وبحثه، وإذا عصفت العواصف كانت حول حماه ولا تغشاه، لا يهمه في حياته إلا علمه، أما ما عداه من أفانين السياسة وألاعيبها، وشئون الدنيا وشهواتها فلا يأبه بها ويقول:

أخي خلِّ حيز ذي باطل وكن للحقيقة في حيز

فما الدار دار مقام لنا وما المرء في الأرض بالمعجز
ينافس هذا لهذا على أقلَّ من الكلم الموجز
محيط السماوات أولى بنا فماذا التنافس في مركز؟!

وأبو العلاء المعرِّي يترك الدنيا مضطربة في المعرة وما حولها، وفي بغداد وما حولها، ويخلق لنفسه جوًّا علميًّا فكريًّا هادئًا لا نزاع فيه إلا على مسأله علمية أو مشكلة لغوية أو فكرة فلسفية، لا علاقة له بأمير إلا أن يتشفع عنده في بلده فيشفع، ولا علاقة له بوزير إلا أن يستفتيه في مسألة علمية فيجيب، وهكذا سيرة كثير من العلماء، فلم لا يرقى العلم في هذه الأجواء الهادئة مهما أحاط بها من ظروف عاصفة؟!

وحتى الذين اكتووا بالسياسة من قرب أو بعد، كالصُّولي والصابي وابن العميد، قد أفادوا العلم والأدب بانغماسهم في الحياة السياسية، وإن احترقوا بنارها.

وما لنا نذهب بعيدًا، وهذا عصر النهضة العلمية والأدبية في أوروبا، كانت الأفكار فيه تبحث وتنتج وتبتكر، والجو السياسي حولها أسوأ ما يكون نزاعًا وفسادًا وظلمًا، فلما خطت الأفكار العلمية والأدبية خطواتها كانت هي التي تصلح الجو السياسي، لا أن الجو السياسي يخنقها.

والخلاصة أن الحالة العلمية في أواخر القرن الثالث وفي القرن الرابع، كانت أنضج منها في العصر الذي قبله: أخذ علماء هذا العصر ما نقله المترجمون قبلهم فشرحوه وهضموه، وأخذوا النظريات المبعثرة فرتبوها؛ وورثوا ثروة من قبلهم في كل فرع من فروع العلم فاستغلُّوها، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

(١-٢) الترف والبؤس

واللهو والجدُّ حيثما نظرنا إلى كل قطر من أقطار العالم الإسلامي في ذلك العصر رأينا الثروة غير موزعة توزيعًا عادلًا ولا متقاربًا، ورأينا الحدود بين الطبقات واضحة كل الوضوح، فجنة ونار، ونعيم مفرط، وبؤس مفرط، وإمعان في الترف يقابله فقدان القوت.

وهذا الترف والنعيم حظُّ عدد قليل، هم الخلفاء والأمراء ومن يلوذ بهم من الأدباء والعلماء، وبعض التجار، ثم البؤس والشقاء والفقر لأكثر الناس. وحتى غِنى الأغنياء في كثير من الأحيان ليس محصَّنًا بالأمان، فهو عرضة لغضب الأقران أو غضب ذي

السلطان الأعلى، فيصادَرون في أموالهم، ويصبح حالهم أشدَّ بؤسًا من فقير نشأ في الفقر، وقد مرَّت بنا أمثلة من هذا القبيل.

والآن نصور بعض صور توضح الحالين.

فقصور الخلفاء والأمراء وأمثالهم واسعة كل السعة، مترفة كل الترف؛ فابن المعتز يصف في ديوانه أبنية للخليفة المعتضد اسمها الثريا فيقول:

حللْت «الثريا» خير دارٍ ومنزل فلا زال معمورًا وبورك من قصر
فليس له فيما بنى الناس مشبهٌ ولا ما بناه الجنُّ في سالف الدهر

* * *

جنانٌ وأشجار تلاقت غصونها فأورقن بالأثمار والورق الخضر
ترى الطير في أغصانهن هواتفًا تَنَقَّلُ من وكرٍ لهن إلى وكر

* * *

وبنيان قصرٍ قد علت شرفاته كصفِّ نساء قد تربعن في الأزر
وأنهار ماء كالسلاسل فجرت لترضع أولاد الرياحين والزهر
وميدان وحش تركض الخيل وسطه فيؤخذ منها ما يشاء على قدر
عطايا إله منعم كان عالمًا بأنك أوفى الناس فيهن بالشكر

واشتهر من الأبنية كذلك قصر «التاج» ابتدأ في بنائه المعتضد أيضًا، ثم عدل عنه وبنى «الثريا»، فلما تولى ابنه المكتفي أتمَّ بناء «التاج»، واستعمل في بنائه الآجرَّ من قصر كسرى الذي بقي منه إلى الآن إيوانه. وكانت وجهة التاج مبنية على خمسة عقود كل عقد على عشرة أساطين، وكانت غاية في السعة والضخامة.

وكلا البناءين — التاج والثريا — كانا في الجانب الشرقي من بغداد.[٥] وقبل ذلك عظم البناء في سامرَّا، وبنى المتوكل فيها الأبنية الضخمة، حتى ليذكر ياقوت ثبتًا ببيان ما بناه ونفقاته فيقول:

> ولم يبن أحد من الخلفاء بِسُرَّ من رأى من الأبنية الجليلة مثل ما بناه المتوكل، فمن ذلك القصر المعروف بالعروس أنفق عليه ثلاثين ألف ألف درهم؛ والجعفري عشرة آلاف ألف درهم، والغريب عشرة آلاف ألف درهم، والشيدان

عشرة آلاف ألف درهم، والبرج عشرة آلاف ألف درهم، والصبح خمسة آلاف ألف درهم، والمليح خمسة آلاف ألف درهم، وقصر بستان الإيتاخية عشرة آلاف ألف درهم.

إلى آخر ما ذكر، إلى أن قال: فذلك الجميع مائتا ألف ألف وأربعة وتسعون ألف درهم. وقد قال علي بن الجهم في وصف الجعفري أحد قصور المتوكل:

وما زلت أسمع أن الملو	ك تبني على قدر أقدارها
وأعلم أنَّ عقول الرجا	ل تقضى عليها بآثارها
فلما رأينا بناء الإمام	رأينا الخلافة في دارها
بدائع لم ترها فارسٌ	ولا الروم في طول أعمارها
وللروم ما شيد الأولون	وللفرس آثار أحرارها
وكنا نحس لها نخوة	فطامنْتَ نخوة جبارها
وأنشأت تحتج للمسلمين	على ملحديها وكفارها
صحون تسافر فيها العيون	إذا ما تجلت لأبصارها
وقبة ملك كأن النجوم	تضيء إليها بأسرارها
نظمن الفسافس نظم الحلي	لِعون النساء وأبكارها
لوَ ان سليمان أدت له	شياطينه بعض أخبارها
لأيقن أن بني هاشم	تقدمها فصل أخطارها

وللبحتري قصائد في وصف بركتها ومحاسنها.

وبلغت سامرَّا في الحضارة شأوًا بعيدًا حتى أفسدها وخرَّبها الخلاف والعصبية بين أمراء الأتراك، وتحول عنها الخلفاء إلى بغداد، وكان أول من فعل ذلك المعتضد بالله، فقد حول العمران إلى بغداد وبنى بها الثريا والتاج.

وقد وصف الخطيب البغدادي قصر المقتدر بالله، الذي تولى من (٢٩٥هـ–٣٢٠هـ)، بمناسبة زيارة رسول من الروم له، فقال: إنه كان للمقتدر أحد عشر ألف خادم خصي، وكذا من صقلبي ورومي وأسود — وهذا جنس واحد ممن تضمه الدار، فدع الآن الغلمان الحجرية وهم ألوف كثيرة والحواشي من الفحول. وقد أمر المقتدر أن يطاف بالرسول في الدار … وفتحت الخزائن، والآلات فيها مرتبة كما يفعل لخزائن العروس.

وقد علقت الستور، ونظم جوهر الخلافة في قلايات على دُرُج غشيت بالديباج الأسود، ولما دخل الرسول إلى دار الشجرة ورآها كثر تعجبه منها؛ وكانت شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم، عليها أطيار مصنوعة من الفضة تصفِّر بحركات قد جعلت لها فكان تعجُّب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده …

وكان عدد ما عُلق في القصور من الستور الديباج المذهبة بالطرز الذهبية الجليلة، المصورة بالجامات والفيلة والخيل والجمال والسباع والطرد، والستور الكبار البضغائية والأرمنية والواسطية والبهنسية السوانج والمنقوشة والديبقية المطرزة ثمانية وثلاثين ألف ستر …

وأدخل رسل صاحب الروم إلى الدار المعروفة بخان الخيل، وهي دار أكثرها أروقة بأساطين رخام، وكان فيها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهبًا وفضة بغير أغشية، ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها الجِلال الديباج بالبراقع الطوال، وكل فرس في يد شاكري بالبزة الجميلة، ثم أدخلوا دار الوحش، وكان فيها من أصناف الوحش التي أخرجت إليهم قطعان تقرب من الناس وتتشممهم وتأكل من أيديهم، ثم أخرجوا إلى دار فيها أربعة فيلة مزينة بالديباج والوشي، على كل فيل ثمانية نفر من السند والزراقين بالنار، فهال الرسل أمرها؛ ثم أخرجوا إلى دار فيها مائة سبع: خمسون يمنة وخمسون يسرة …

ثم أخرجوا إلى الجوسق المحدث، وهي دار بين بساتين، في وسطها بركة رصاص قلعي،[٦] حواليها نهر رصاص قلعي أحسن من الفضة المجلوة، طول البركة ثلاثون ذراعًا في عشرين ذراعًا، فيها أربع طيارات لطاف بمجالس مذهبة … وحوالي هذه البركة بستان بميادين فيها نخل، وعدده أربعمائة نخلة، وطول كل واحدة خمسة أذرع، قد لبس جميعها ساجًا منقوشًا من أصلها إلى حدِّ الجمَّارة بحلق من شبه مذهبة … وفي جانب الدار يمنة البركة تماثيل خمسة عشر فارسًا على خمسة عشر فرسًا، قد ألبسوا الديباج وغيره، وفي أيديهم مطارد على رماح يدورون على خط واحد في الناورد جنبًا وتقريبًا، فيظن أن كل واحد منهم إلى صاحبه قاصد، وفي الجانب الأيسر مثل ذلك.

ثم أخرجوا — بعد أن طيف بهم ثلاثة وعشرين قصرًا — إلى الصحن التسعيني، وفيه الغلمان الحجرية بالسلاح الكامل.

ثم وصلوا إلى حضرة المقتدر بالله وهو جالس في «التاج» مما يلي دجلة، بعد أن لُبِّس بالثياب الديبقية المطرزة بالذهب، على سرير آبنوس قد فرس بالديبقي المطرز

بالذهب، وعلى رأسه الطويلة، ومن يمنة السرير تسعة عقود مثل السبح معلقة، ومن بسرته تسعة أخرى من أفخر الجواهر وأعظمها قيمة غالبة الضوء على ضوء النهار، وبين يديه خمسة من ولده: ثلاثة يمنة، واثنان يسرة.[٧]

ولعل هذه الصورة خير وصف لقصور الخلفاء في ذلك العصر.

والخلفاء من أول العصر العباسي يعلو كل خليفة ما قبل درجة أو درجات في الترف والنعيم والإمعان في فنون الحضارة، والأغنياء يتبعونهم في ذلك على قدر مواردهم، سائرين على حكم الزمان.

ولذلك لما جاء المهتدي بالله (٢٥٥هـ–٢٥٦هـ)، ونزع نزعته إلى الزهد استغرب منه ذلك، ولم يطاوعه الناس وسئموا سيرته، وأدى الأمر إلى قتله.

ذلك أنه جعل مَثَلَه الذي يجب أن يحتذى عمر بن عبد العزيز، فحرم الشراب ونهى عن القيان، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وقرب العلماء ورفع من منازل الفقهاء، وأحسن معاملة الطالبيين، وقلل من اللباس والفرش والمطعم والمشرب، وأخرج آنية الذهب والفضة من خزائن الخلفاء فكسرت وضربت دنانير ودراهم، وعمد إلى الصور التي كانت في المجالس فمحيت، وذبح الكباش التي كان يناطح بها بين يدي الخلفاء، وكذلك فعل في الديوك، وكانت الخلفاء قبله تنفق على موائدها كل يوم عشرة آلاف درهم، فأزال ذلك، وجعل لمائدته وسائر مؤنه في كل يوم نحو مائة درهم.

وكان يتهجد في الليل ويطيل الصلاة، ويلبس جبة من شعر.

قال المسعودي: «فثقلت وطأته على العامة والخاصة بحمله إياهم على الطريقة الواضحة، فاستطالوا خلافته وسئموا أيامه، وعملوا الحيلة عليه حتى قتلوه.»

لما قبضوا عليه قالوا له: أتريد أن تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يعرفوها؟ فقال: أريد أن أحملهم على سيرة الرسول ﷺ وأهل بيته والخلفاء الراشدين! فقيل له: إن الرسول كان مع قوم قد زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم، وأنت إنما رجالك تركي وخزري ومغربي وغير ذلك من أنواع الأعاجم لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم، وإنما غرضهم ما استعجلوه من الدنيا، فكيف تحملهم على ما ذكرت من الواضحة؟!»[٨]

ولم يدم في خلافته إلا أحد عشر شهرًا.

وهكذا كان تيار الترف شديدًا جارفًا حتى ليكتسح من وقف في سبيله.

وقد أنشأ عضد الدولة البويهي بستانًا بلغت النفقة عليه وعلى سَوْق الماء إليه خمسة آلاف ألف درهم.[٩]

والوزير ابن مقلة يربي الحيوانات في قصره ويعنى بها أكثر عناية، «فكان له بستان عظيم عدة أجربة، شجر بلا نخل، عمل له شبكة إبريسم، وكان يفرِّخ فيه الطيور التي لا تفرخ إلا في الشجر، كالقماري والدِّباس والهَزَار والببَّغ والبلابل والقَبَج، وكان فيه من الغزلان والنعام والأيل وحمر الوحش، وبُشِّر مرة بأن طائرًا بحريًا وقع على طائر بري، فباض وفقس، فأعطى من بشره بذلك مائة دينار».[١٠]

«والوزير ابن الفرات كان يملك أموالًا كثيرة تزيد على عشرة آلاف ألف دينار، وكان يستغل من ضياعه في كل سنة ألفي ألف دينار وينفقها، وكانت في داره حجرة شراب يوجه الناس على اختلاف طبقاتهم إليها غلمانهم يأخذون الأشربة والفقاَّع والجلَّاب إلى دورهم»،[١١] وكان ابن الفرات لا يأكل إلا بملاعق البلور، وما كان يأكل بالمعلقة إلا لقمة واحدة، فكان يوضع له على المائدة أكثر من ثلاثين معلقة.

وكان راتب أبي طاهر وزير عز الدولة من الثلج في كل يوم ألف رطل، وكانت أم المقتدر يشترى لها ثياب ديبقية يسمونها ثياب النعال، وذلك أنها كانت صفاقًا تقطع على مقدار النعال المحذوَّة، وتطلى بالمسك والعنبر المذاب وتجمده، ويجعل بين كل طبقتين من الثياب من ذلك المطيب ما له قوام ... وكانت نعال السيدة من هذا المتاع، لا تلبس النعل إلا عشرة أيام أو حواليها حتى تخلق وتتفتق وترمى، فتأخذها الخزَّان وغيرهم، فيستخرجون من ذلك العنبر والمسك».[١٢]

«وكان الوزير المهلبي كثير الشغف بالورد؛ روى من شاهده قال: «شاهدت أبا محمد المهلبي قد ابتيع له في ثلاثة أيام وردٌ بألف دينار، فرش به مجالسه وطرحه في بركة عظيمة كانت في داره، ولها فوارات عجيبة، يطرح الورد في مائها فتنفضه على المجلس فيقع على رؤوس الجالسين؛ وبعد شرابه عليه، وبلوغه ما أراد منه، أنهبه».[١٣]

وانتشرت مجالس الشراب، ووضعت لها القواعد والقوانين والآداب، كالذي فعله «كشاجم» في تأليف كتابه «أدب النديم»، وتفننوا فيما يكتب من الشعر على القناني والكاسات.[١٤] واعتاد الخلفاء والوزراء والأمراء مجالس الشراب وبالغوا في الإسراف فيها؛ «يحكى أنه كان للوزير المهلبي ندماء يجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين على اطراح الحشمة والتبسط في القصف والخلاعة، وهم: ابن قريعة، وابن معروف، والقاضي التنوخي، وغيرهم، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها؛ وكذلك كان الوزير المهلبي، فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس، ولذ السماع وأخذ الطرب منهم مأخذه، وهَبوا ثوب الوقار للعُقار، وتقلبوا في أعطاف العيش بين الخفة والطيش، ووُضع في يد كل واحد منهم

كأس ذهب من ألف مثقال إلى ما دونها مملوء شرابًا قطربليًّا أو عكبريًّا، فيغمس لحيته فيها بل ينقعها حتى تتشرب أكثرَه، ويرش بها بعضهم على بعض، ويرقصون أجمعهم ... فإذا أصبحوا عادوا لعادتهم في التزمت والوقار».[١٥]

ونذكر هنا ثروة أحد الولاة لدلالتها على مقدار الثروة ونوعها؛ فقد مات في سنة ٣٠١هـ أبو الحسين على بن أحمد الراسبي عن سن كبيرة، وكان يتقلد جنديسابور والسوس وماذاريا، ومات أولاده قبله، وكان له حفدة، فخلَّف:

٤٤٥٥٤٧	دينارًا ذهبًا عينًا
٣٢٠٢٣٧	درهمًا عينًا
٤٣٩٧٠	مثقالًا وزن الأواني الذهبية
١٩٧٥	رطلًا وزن الأواني الفضية
٤٤٢٠	مثقالًا من العود المُطَرَّى
٥٠٢٠	مثقالًا من العنبر
٨٦٠	نافجة من نوافج المسك
١٦٠٠	مثقال من المسك المنثور
١٣٩٩	مثقالًا من البرمكية (نوع من الطيب)
٣٦٦	مثقالًا من الغالية (نوع من الطيب)
٨٨	ثوبًا من الثياب المنسوجة من الذهب
١٣	سرجًا
٢	حجرين عظيمين من الياقوت
٧٠	حبة من اللؤلؤ
١٣٥	رأسًا من الخيل
١١٤	من خدم السوادن
١٢٨	من الغلمان البيض
١٩	خادمًا من الصقالبة والروم
٤٠	غلامًا بآلاتهم وسلاحهم ودوابهم
٢٠٠٠٠	دينار قيمة أصناف من الكسوة
١٢٨	رأسًا من المهاريِّ والبغال

١٢٥	خيمة من الخيام الكبار
١٤	هودجًا
١٤	صندوقًا من الغضائر الصيني والزجاج المحكم الفاخر

وخلف عضد الدولة البويهي ٢٨٧٥٢٨٤ دينارًا، ومن الورِق والنقد والفضة ١٠٠٨٦٠٧٩٠ درهمًا، ومن الجواهر واليواقيت واللؤلؤ والماس والبلور والسلاح والمتاع شيئًا كثيرًا.[١٦]

وتفننوا في الصناعات الجميلة من أنواع الحلي والدقة في النسج وزركشة الثياب وأنواع العطور، والنقش والتصوير، وأصناف الأزياء والمأكول والمشروب، والحدائق والبساتين، والغناء والموسيقى مما يطول شرحه، وكلها يستمتع بها طبقة الأشراف والموسرين.

وبلغوا من الأناقة في المعيشة أن جعلوا للظرف والظرفاء قوانين متعارفة من خرج عليها كان غير ظريف، وألَّفوا في ذلك الكتب كـ «الموشَّى» للوشاء، و«حدود الظرف» له أيضًا، و«ما يقدم من الأطعمة وما يؤخر» للرازي، و«ترتيب أكل الفواكه» له أيضًا، و«آداب الحمام» له أيضًا، و«الزينة» لحنين بن إسحاق، و«الهدايا والسنَّة فيها» لإبراهيم الحربي، و«النبيذ وشربه في الولائم» لقسطا بن لوقا ... إلخ، فقال الموشي: «اعلم أن من كمال أدب الأدباء، وحسن تظرف الظرفاء، صبرهم على ما تولدت به المكارم، واجتنابهم لخسيس المآثم، فهم لا يداخلون أحدًا في حديثه، ولا يتطلعون على قارئ في كتابه، ولا يقطعون على متكلم كلامه، ولا يستمعون على مُسِرٍّ سره، ولا يسألون عما وُرِّي عنهم علمه، ولا يتكلمون فيما حجب عنهم فهمه.» ... إلخ. ووضعوا قوانين الظرف تفصيلًا كما وضعوها إجمالًا، فقوانين الظرف في الزي، وفي التعطر، وفي الشراب، وما هو ظرف في الرجال لا في النساء، وما هو ظرف في النساء لا في الرجال، وهكذا.

فإذا نحن جاوزنا العراق إلى غيره من الأقطار رأينا في الشام مثلًا آل حمدان، وعلى رأسهم سيف الدولة مترفين ممعنين في الترف.

«فيحكى أن سيف الدولة لما ورد إلى بغداد وقت توزون اجتاز وهو راكب فرسه وبيده رمحه، وبين يديه عبد له صغير، وقصد الفرجة وألا يعرف؛ فاجتاز بشارع دار

الرقيق على دور بني خاقان وفيها فتيان فدخل وسمع وشرب معهم وهم لا يعرفونه وخدموه، ثم استدعى عند خروجه الدواة فكتب رقعة وتركها فيها، ثم انصرف؛ ففتحوا الدواة فإذا في الرقعة ألف دينار على بعض الصيارف، فتعجبوا، وحملوا الرقعة وهم يظنونها ساذجة، فأعطاهم الصيرفي الدنانير في الحال والوقت[١٧] (وهذا هو نظام الحوالات)؛ فسألوه عن الرجل، فقال: ذلك سيف الدولة بن حمدان».[١٨]

وضرب للصلات خاصة دنانير في كل دينار منها عشرة مثاقيل وعليه اسمه وصورته.[١٩]

ودخل عليه شاعر وطرح من كمه كيسًا فارغًا ودرجًا فيه شعر استأذنه في إنشاده فأذن له، فأنشده قصيدة أولها:

جباؤك معتاد وأمرك نافذ وعبدك محتاج إلى ألف درهم

فلما فرغ من إنشاده ضحك سيف الدولة ضحكًا شديدًا، وأمر له بألف دينار، فجعلت في الكيس الفارغ الذي كان معه.[٢٠]

وقصوره كانت ملأى بالجواري وخاصةً من أسرى الروم، «وكانت له جارية من بنات ملوك الروم لا يرى الدنيا إلا بها، ويشفق من الريح الهابة عليها، فحسدتها سائر حظاياه على لطف محلها منه» ... إلخ.[٢١] وكان يركب في خمسة آلاف من الجند، وألفين من غلمانه ليزور قبر والدته.[٢٢]

وكان الملوك والأمراء في مصر في منتهى الترف والنعيم؛ ففي العهد الطولوني كان الحي الذي فيه الآن جامع ابن طولون وما حوله من القلعة إلى «زين العابدين» يزخر بالمباني الضخمة، وفيها هذا المسجد الفخم والمستشفى الكبير، والقصور الشامخة، والميادين الفسيحة، وآيات الفن؛ فقد كان بجوار جامع ابن طولون ميدان فسيح، فجعله خمارويه بن أحمد بن طولون كله بستانًا بديعًا، زرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر، وحمل إليه من البلدان المختلفة كل صنف من الشجر المطعَّم وأنواع الورد.

وكان من بِدْعه أنه كسا أجسام النخل نحاسًا مذهبًا، وجعل بين النحاس والنَّخل مواسير من الرصاص يجري فيها الماء، فكان الماء يخرج من النحاس الملبس في النخل فينحدر إلى فساقي، ويفيض الماء من الفساقي إلى مجار تسقي سائر البستان.

وهندس البستان هندسة بديعة، فعمل من الرياحين كتابة مكتوبة في البستان يتعاهدها البستاني بالمقاريض حتى لا تزيد ورقة على ورقة، وعمل في البستان برجًا من

خشب الساج منقوشًا ومطعّمًا، وسرَّح فيه أصناف الحمام وأصناف الطيور المغرِّدة، وجعل في البرج أوكارًا لأفراخها، وعيدانًا مثبتة في جوانبه لتقف عليها إذا تطايرت، حتى يجاوب بعضها بعضًا بالمناغاة، وسرَّح في البستان الطواويس والدجاج الحبشي ونحو ذلك، وعمل فيه مجلسًا سمَّاه دار الذهب، طلى حيطانه كلها بالذهب واللازورد، وجعل في حيطانه مقدار قامة ونصف من خشب صوِّرت فيه صورته، والمغنِّيات التي تغنيه في أحسن تصوير وأبهج تزويق، ولوِّنت أجسامها بألوان تشبه ألوان الثياب من الأصباغ العجيبة، فكان هذا القصر من أعجب ما بني في الدنيا.

وعمل فيه فسقية ملئت من الزئبق، وطُرح عليه فرش ملئ بالهواء وشدَّ بزنانير من حرير في حلق من الفضة؛ فينام أحيانًا عليه فيرتج ارتجاجًا ناعمًا، وكان يرى له في الليالي المقمرة منظر عجيب إذا ائتلف نور القمر بنور الزئبق.

وجعل في ناحية من نواحي القصر دارًا للسباع، لكل سبع بيت، ولكل بيت باب يفتح من أعلاه، ولكل بيت طاقة صغيرة يدخل منها الرجل الموكل به، وفرش بيوت السباع وما حولها بالرمل يجدد من حين إلى حين.

وأكثر من الخدم، ودرَّب كثيرًا منهم على التفنن في الطهي وتنويعه، واشتهر عبيد مصر إذ ذاك بحسن الطهي كما عودهم خمارويه؛ فكان الناس يأتون من مختلف الأقطار لشرائهم لحسن سمعتهم في هذا الباب.

ولعل أكبر ما يوضح هذا الترف والنعيم زواج «قَطْر الندى» بنت خمارويه، وقد خطبها خليفة المسلمين في بغداد المعتضد بالله العباسي، فتفنن خمارويه وأنفق خزائن الدولة في جهازها يحمله من مصر إلى بغداد، حتى تضعضعت حالة مصر المالية بعد ذلك الإسراف.

فكان من بين هذا الجهاز دَكَّة تتألف من أربع قطع من الذهب، عليها قبة من ذهب مشبك، في كل عين من التشبيك قرط معلَّق فيه حبة من جوهر لا يُعرف لها قيمة، وكان في الجهاز مائة هاون من ذهب، وقد عمل حساب نفقات الجهاز، فكانت دفعة من نفقاته أربعمائة ألف دينار.

وانتقلت العروس من مصر إلى بغداد، والشقَّة بينهما بعيدة، فأمر خمارويه فبنى على رأس كل مرحلة من مصر إلى بغداد قصرًا تنزل فيه قَطْر الندى، وكانوا يسيرون بها سير الطفل في المهد، فإذا أتمت مرحلةً وجدتْ قصرًا قد فُرش، وأُعِدَّ بكل أنواع المعدات، فكأنها في هذه الرحلة الطويلة في قصر أبيها حتى قدمت بغداد في أول المحرم سنة ٢٨٢هـ.[٢٣]

وثروة آل الجصَّاص في العهد الطولوني كانت تقدر بملايين الدنانير، ويحكي أحدهم وهو الحسين بن عبد الله الجَصَّاص — وكان من أعيان التجار في الجواهر — سبب ثروته فيقول: «كان بدء يساري أني كنت في دهليز أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، وكنت وكيله في ابتياع الجوهر وغيره مما يحتاجون إليه، وما كنت أفارق الدهليز لاختصاصي به، فخرجتْ إليَّ قهرمانة لهم في بعض الأيام ومعها عقد جوهر فيه مائة حبة لم أر قبله ولا بعده أفخر ولا أحسن منه، كل حبة تساوي مائة ألف دينار عندي؛ قالت: نحتاج أن تخرط هذه حتى تصغر فنجعلها في آذان اللعب وفي قلائدها، فكدتُ أطير، وأخذتها وقد قلت: السمع والطاعة، وخرجت في الحال وجمعت التجار، واشتريت مائة حبة من النوع الذي طلبتْه … وقامت عليَّ المائة حبة بدون المائة ألف درهم، وأخذت منهم جوهرًا بمائتي ألف دينار.»[٢٤]

وفي العهد الفاطمي كان الترف أنعم وأضخم وأفخم، تقرأ في «خطط المقريزي» وصف خزائن الفاطميين وحياتهم في القصور، وتفننهم في أدوات الترف والنعيم فيأخذك العجب العجاب، فيقول: «إنه كان للخليفة خزانتان: ظاهرة؛ وفيها الملابس التي ينعم بها على الناس، وباطنة؛ وهي الخاصة بلباس الخليفة، ويتولاها امرأة تنعت بزين الخُزَّان، وبين يديها ثلاثون جارية، فلا يغير الخليفة أبدًا ثيابه إلا عندها … وكان برسم هذه الخزانة بستان من أملاك الخليفة على شاطئ الخليج يعنى أبدًا فيه بالنسرين والياسمين، فيحمل في يوم منه شيء في الصيف والشتاء لا ينقطع أبدًا برسم الثياب والصناديق.

ولما كشف حاصل الخزائن الخاصة للعاضد بالقصر كان الموجود فيها مائة صندوق كسوة فاخرة من موشَّى ومرصَّع، وعقود ثمينة وجواهر نفيسة، وغير ذلك من ذخائر عظيمة الخطر.»[٢٥]

وفي أيام شدة المستنصر أخرج من بعض خزائن القصر صندوقٌ كِيلَ منه سبعة أمداد زمرد؛ فسأل بعض من حضر من الوزراء الجوهريين: كم قيمة هذا الزمرد؟ فقالوا: إنما نعرف قيمة الشيء إذا كان مثله موجودًا، ومثل هذا لا قيمة له! … وأخرج عقد جوهر قيمته على الأقلِّ من ثمانية آلاف دينار فصاعدًا، وأخرج ألف ومائتا خاتم ذهبًا وفضة من سائر أنواع الجواهر المختلف الألوان والقيم والأثمان … وأحضرت خريطة فيها نحو ويبة جواهر، وأحضر الخبراء من الجوهريين فذكروا أن لا قيمة لها ولا يشتري مثلها إلا الملوك، فقوِّمت بعشرين ألف دينار، وأخرج طاووس ذهب مرصَّع

بنفيس الجواهر، عيناه من ياقوت أحمر، وريشه من الزجاج المينا المجري بالذهب، على ألوان ريش الطاووس، وديك من الذهب له عرف مفروق كأكبر ما يكون من أعراف الديوك من الياقوت الأحمر، مرصَّع بسائر الدرر والجوهر، وعيناه ياقوت، وغزال مرصَّع بنفيس الدر والجوهر، وبطنه أبيض قد نظم من درٍّ رائع ... إلخ إلخ.[٢٦] ونحو هذا ذكر المقريزي في خزائن العرش والأمتعة، وخزائن السلاح والسروج والخيم والشراب والتوابل والبنود.

ورووا أن المعز لدين الله فاتح مصر لما خرج من بلاد المغرب أخرج معه أموالًا كانت له بها، وأمر بسبكها أرحية كأرحية الطواحين، وكان معه مائة جمل عليها هذه الطواحين من الذهب، وأمر المعز بها حين دخل إلى مصر فألقيت على باب قصره، ولم تزل على باب القصر إلى أن كان زمن الغلاء في أيام المستنصر، فلما ضاق الناس بالأمر أذن لهم أن يبردوا منها بمبارد، وغرَّهم الطمع حتى ذهبوا بأكثرها، فأمر بحمل الباقي إلى القصر، فلم تر بعد ذلك.

وقد عمل المعز عضادتي باب من أبواب قصره من تلك الأرحية، واحدة فوق أخرى، فسمي باب الذهب، وسُميت القاعة التي يدخل إليها من هذا الباب قاعة الذهب.[٢٧]

ولما دخل صلاح الدين القصر الكبير للخلفاء الفاطميين، وجد فيه اثني عشر ألف نسمة ليس فيهم فحل إلا الخليفة وأهله وولده.[٢٨]

ومهما بالغ المقريزي ومن نقل عنهم في وصف غناهم، فإن الأساس صحيح وهو غنى القوم، وإمعانهم في الترف إمعانًا يزيد عما وصل إليه العباسيون أيام الرشيد.

«وكان إقطاع الوزير ابن كلِّس «وزير العزيز بالله» مائة ألف دينار في السنة، ووجد للوزير المذكور من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام، ووجد له جوهر بأربعمائة ألف دينار، وبزٌّ من كل صنف بخمسمائة دينار».[٢٩]

ويصف لنا عمارة اليمني دارًا بناها ابن رُزِّيك الوزير الفاطمي فيقول:

فتَمَلَّ دارًا شيَّدتها همة ... يغدو العسير ببابها متيسِّرا
جَمَّلتها وتجملت مصرٌ بها ... لما علت بك عزة وتكبُّرا
وسقيتَ من ذَوْب النضار سقوفها ... حتى لكاد نضارها أن يقطرا
لم يبد فيها الروض إلا مزهرًا ... والنخل والرمان إلا مثمرا
وبها من الحيوان كل مشهَّر ... لبس الوشيج العبقري مشهَّرا

وكأن صولتك المخوفة أمنت أسرابها ألا تراع وتذعرا
أنشأت فيها للعيون بدائعًا زفَّت فأذهل حسنها من أبصرا
فمن الرخام مسيَّرًا ومسهَّمًا ومنمنمًا ومدرهمًا ومدنَّرا
والعاج بين الآبنوس كأنه أرض من الكافور تنبت عنبرا

* * *

قد كان منظرها بهيًّا رائقًا فجعلتها بالوشي أبهى منظرا
ألبستها بيض الستور وحمرها فأتت كزهر الورد أبيض أحمرا
فمجالس كسيت رقيمًا أبيضًا ومجالس كسيت طميمًا أصفرا
لم يبق نوع صامتٌ أو ناطق إلا غدا فيها الجميع مصوَّرا

... إلخ.

وبعد؛ فقد كان المال وفيرًا كثيرًا، والترف والنعيم بالغًا أقصاه في بلاط الخلفاء وقصور الأمراء والخاصة، أما الشعب فأكثره بائس فقير.

قد كان هناك طبقتان متميزتان كل التميز، فالخليفة ورجال دولته وأهلوهم وأتباعهم طبقة الخاصة، وهم عدد قليل بالنسبة لمجموع الأمة، وبقية الناس — وهم الأكثر — طبقة العامة من علماء وتجار وصناع ومزارعين ورعاع، وأغلب هؤلاء فقراء إلا من اتصل منهم بالخلفاء والأمراء.

ذلك أن أكبر مصدر للمال هو الجزية والخراج، وهذه تدخل في بيت المال تحت سلطة الخلفاء ومن إليهم، وينفق منها على مصالح الدولة، وما بقي — وهو كبير — يصرف في رغبات الخلفاء والأمراء: من هبات للشعراء والمدَّاح، وشراء ما يعرضه تجار الجواهر، وتجار الجواري والتحف، وجوائز للمضحكين. والكريم منهم يمد الموائد لفقراء الشعب ويطعمهم ويكسوهم، فألوف الناس تأكل على الموائد وتنال صدقاتهم؛ فلؤلؤ الحاجب في أيام الفاطميين يفرق في اليوم اثني عشر الف رغيف مع قِدَر الطعام، فإذا دخل رمضان أضعف ذلك، ووقف هو بنفسه ليفرقه،[٣٠] وكان عليٌّ بن عيسى — وزير المقتدر — يعطي الطالبيين والعباسيين وأبناء الأنصار،[٣١] وكان ابن الفرات يعطي الفقهاء والعلماء والفقراء وأهل البيوتات؛ أكثرهم مائة دينار في الشهر، وأقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك.[٣٢]

لهذا كله كانت كل أنظار الناس موجَّهة إلى الخلفاء والأمراء، فالعلماء إن أرادوا الغنى لم يجدوه إلا في خدمتهم، والشعراء إن أرادوا العيش لم يجدوه إلا في مديحهم، والتجار إن وقع شيء ثمين في يدهم من جوهر أو جوار لا يجدون نفاقًا لها إلا في قصورهم، والصناع إذا أحسنوا صناعة شيء فهم مقدصهم، أما سائر الشعب ففقير بائس قلَّ أن يجد الكفاف! فالعلماء إذا بعدوا عن القصور عزَّ قوتهم، والشعراء لا يشعرون لأنفسهم ولا لعواطفهم، وإنما يشعرون للمال يَنْشدونه من يد الخلفاء والأمراء؛ ولهذا كان أكثر شعرهم مديحًا، والفنانون والتجار كذلك. وكان أكثر مديح الخلفاء والأمراء بالكرم والسخاء، لا بالعدل والحزم وضبط الأمور.

فإذا نفد مال الخلفاء والأمراء صادروا الأغنياء ليسلبوهم مالهم، ثم يوزعونه على شهواتهم وأتباعهم. فنشأ عن هذا إخفاءُ الأموال والتظاهر بالفقر، وهربُ بعيدي النظر من التقرب من الخلفاء وذويهم، ونشأ في الأدب العربي كثير من الشعر والنثر يحمد الفقر والبعد عن البلاط،[٣٣] كما نشأ شيوع التصوف والميل إليه.

كان بجانب هذا الغنى المفرط، والإمعان في اللذائذ، فقر مدقع يقع فيه العلماء وعامة الشعب ممن لم يتصلوا بالخلفاء والأمراء ومن إليهم.

هذا «عبد الوهاب البغدادي المالكي» فقيهٌ أديبٌ شاعرٌ له المصنفات الرائعة في الفقه، لم يكن في المالكيين أفقه منه في زمنه، ولما نزل معرَّة النعمان في رحلته أضافه أبو العلاء وقال فيه:

والمالكيُّ ابن نصرٍ زارَ في سفر ... بلادنا فحمِدْنا النَّأْي والسفرا
إذا تفقّه أحيا مالكًا جَدلًا ... وينشُرُ المَلِكَ الضِّلِّيلَ إنْ شعرا

هذا كله تضيق به المعيشة في بغداد حتى لا يجد قوت يومه، ويخرج عنها طالبًا للرزق، ولما شيَّعه أكابرها قال لهم: «لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة ما عدلت عن بلدكم.» ثم أنشأ يقول:

سلامٌ على بغداد في كل موطِنٍ ... وحق لها مني سلامٌ مضاعَفُ
فوالله ما فارقتُها عن قِلًى لها ... وإني بشطَّيْ جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت عليَّ بأَسْرها ... ولم تكن الأرزاق فيها تساعف

وكانت كخِلٍّ كنت أهوى دُنُوَّه وأخلاقُه تنأى به وتخالف

فلما وصل إلى مصر، مات لأول ما وصلها من أكلة اشتهاها فأكلها، فزعموا أنه قال وهو يتقلب: «لا إله إلا الله، إذا عشنا متنا.»[٣٤]

وهذا أبو حيان التوحيدي البغدادي، وهو ما هو في علمه الواسع وأدبه الفياض، وفلسفته، وبلاغته، وتصوفه، واتصاله بالوزراء والعلماء، وكدِّه في الحياة البوراقة ونسخ الكتاب، وتآليفه الكثيرة، كل هذا ويقول محدثًا عن نفسه: «ولقد اضطررت بينهم بعد العشرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدِّين والمروءة، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحرِّ أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألم.»[٣٥]

ولما أعيته الحيل تحوَّل طلبه وملقه ورياؤه ونفاقه إلى غيظ من الناس وحقد عليهم، فأحرق في آخر أيامه كتبه، وقال: «إني جمعت أكثرها للناس ولطلب المثالة منهم، ولعقد الرياسة عندهم، ولمدِّ الجاه عندهم، فحُرمت ذلك كله.»

وقد ملأ كتابه «الإمتاع والمؤانسة» شكوى من الفقر ومن سوء الحال، ورفع صوته إلى الوزراء والأغنياء، فعاد من ذلك كله صفر اليدين.

وهذا أبو سليمان المنطقي، أعقل عقلاء بغداد وأوسعهم نظرًا، وأعمقهم فكرًا، ومن اطلع على الفلسفة اليونانية، فأدرك أسرارها، وعرف مراميها وأغراضها، مع استقلال في الفكر، وشخصية ممتازة في الحكم، وكان أعور، وكان به برص منعه من الاتصال بالناس، وحمله على لزومه منزله، فلم يتصل به إلا تلاميذه الذين عرفوا قدره، ولم يجدوا بغيتهم عند غيره — كان فقيرًا، وقال فيه أبو حيان، وهو من تلاميذه: «إن حاجته ماسة إلى رغيف، وحولُه وقوتُه قد عجزا عن أجرة مسكن، وعن وجبة غدائه وعشائه.» فلما منَّ عليه الوزير ابن سعدان بمائة دينار، سرَّه ذلك غاية السرور، وترفَّل وتحنَّك.

وهذا أبو علي القالي البغدادي، ضاقت به الحال قبل أن يرحل إلى الأندلس، حتى اضطر أن يبيع بعض كتبه، وهي أعز شيء عنده، فباع نسخته من كتاب «الجمهرة» وكان كَلِفًا بها، فاشتراها الشريف المرتضى، فوجد عليها بخط أبي علي:

أَنِست بها عشرين حَوْلًا وبعتها فقد طال وَجْدي بعدها وحنيني

وما كان ظنِّي أنني سأبيعها ولو خلَّدتني في السجون ديوني
ولكنْ لضعف وافتقار وصبية صغار عليهم تستهلُّ جفوني
فقلت ولم أملك سوابق عَبْرَةٍ مقالة مكوي الفؤاد حزين
«وقد تُخرج الحاجات يا أم مالك ودائعَ من ربٍّ بهن ضنين»

وهذا أبو العباس المعروف بابن الخباز الموصلي، كان من كبار النحويين والأدباء، قال في خطبة كتابه المسمى «بالفريدة في شرح القصيدة»: «ومن علم حقيقة حالي عذرني إذا قصرت، فإن عندي من الهموم ما يزع الجنان عن حفظه، ويكف اللسان عن لفظه:

ولو أن ما بي بالجبال لهدَّها وبالنار أطفاها وبالماء لم يَجْر
وبالناس لم يحيوا وبالدهر لم يكن وبالشمس لم تطلع وبالنجم لم يَسْر

وأنا أسأل الله العظيم أن يكفيني شر شكواي، وألا يزيدني على بلواي، فإني كلما أردت خفض العيش صار مرفوعًا، وعاد بالحزن سبب المسرة مقطوعًا، والله المستعان في كل حال، ومنه المبدأ وإليه المآل.»

وهذا الزمخشري يقول:

ومما شجاني أنَّ غُرَّ مناقبي يغنِّي بها الركبان بين القوافل
وطارت إلى أقصى البلاد قصائدي وسارت مسير النيِّرات رسائلي
وكم من أمالٍ لي وكم من مصنَّف أصاب بها ذهني مَحز المفاصل
غنيٌّ من الآداب لكنني إذا نظرتُ فما في الكفِّ غير الأنامل
فيا ليتني أصبحت مستغنيًا ولم أكن في خوارزم رئيس الأفاضل
ويا ليتني مُرْضٍ صديقي ومُسْخِطٌ عدوي وأني في فهاهة باقل
وما حق مثلي أن يكون مضيَّقًا وقد عظمت عند الوزير وسائلي
فلا تجعلوني مثل همزة واصل فيسقطني حذف ولا راء واصل

فكل امرئ أمثاله عدد الحصا وهاتِ نظيري في جميع المحافل

وهذا الأبيوردي الشاعر الفقيه، حكى الخطيب البغدادي عنه أنه مكث سنتين لا يقدر على جُبَّة يلبسها في الشتاء، ويقول لأصحابه: «بي علَّةٌ تمنعني لبس المحشو.» يريد بالعلَّة: علَّة الفقر.

وهذا الخطيب التبريزي كان له نسخة من كتاب «التهذيب في اللغة» للأزهري في عدة مجلدات أراد تحقيق ما فيها، وسماعها على عالم باللغة، فدُلَّ على أبي العلاء المعري، فجعل الكتاب في مخلاة وحملها على كتفه من تبريز إلى معرَّة النعمان، ولم يكن له من المال ما يستأجر به ما يركبه، فنفذ العرق من ظهره إليها فأثَّر فيها البلل، ومن شعره:

فمن يسألْ من الأسفار يومًا فإني قد سئمت من المُقَام
أقمنا بالعراق على رجالٍ لئام ينتمون إلى لئام

وحكى لنا أبو حيان التوحيدي حادثة انتحار فظيعة فقال: «شاهدنا في هذه الأيام شيخًا من أهل العلم ساءت حاله، وضاق رزقه، واشتد نفور الناس عنه، ومقتُ معارفه له، فلما توالى عليه هذا دخل يومًا منزله، ومدَّ حبلًا إلى سقف البيت واختنق به، فلما عرفنا حاله جزعنا وتوجَّعنا وتناقلنا حديثه وتصرفنا فيه كل متصرف.»

وأخذ أبو حيان وأصحابه يتجادلون في أن له الحق في الانتحار أو لا.[٣٦] هذا شأن العلماء، وعامة الشعب كانوا أسوأ حالًا؛ ذلك لأنَّ النظام المالي للدولة كان نظامًا سيئًا، فنفقات البلاد قد بلغت حدًّا لا يطاق من الإسراف والبذخ وصنوف الترف، وجباية الخراج وسائر الضرائب تباع لأشخاص على سبيل الالتزام، فيعسفون بالناس حتى يبتزوا منهم أضعاف ما دفعوا، والقضاء قد اختلَّ بتدخل الحكام وانتشار الرشوة، والجيش قد انقسم إلى شُعب مختلفة من ترك ودَيْلم ومغاربة وغيرهم، وكلُّ فرقة تتعصب لجنسها، وتضمر العداء لغيرها، والسلطة مضطرة لإنفاق المال الكثير لاسترضاء هؤلاء وهؤلاء، والمناصب الحكومية ليست في استقرار؛ فاليوم يولَّى وزير، وغدًا يُصادَر، ولكل وزير أعوانه يحظون بتوليته ويُعْسَف بهم بعزله، وغير الوزراء شأنهم أهون.

كل هذا سبَّب فساد النظام المالي، واستتبع فقر الشعب واضطرابه وكثرة ثوراته.

وظاهرة أخرى نراها في الفنون، وهي أنها كانت لا تنمو إلا في بلاط الخلفاء والأمراء، فلم يكن الشاهر يشعر لنفسه إلا قليلًا، ولا الفنان يتفنَّن لنفسه إلا نادرًا، فكلهم يقصد خليفة أو أميرًا يعرض عليه سلعته من شعر أو فن؛ ولذلك تلوَّن الشعر والنثر والفن بلون الاستجداء كثيرًا؛ لأن العصر لم يكن عصرًا ديمقراطيًّا يستطيع فيه أن يعيش الفنان لنفسه أو للشعب، كما هو الشأن في العصور الحديثة، بل كان عصرًا أرستقراطيًّا لا ينعم فيه إلا الأرستقراطيون ومن شاء أن يعيش على موائدهم، بل من شاءوا هم أن يؤكلوه من موائدهم؛ ولذلك إذا أحصيت الأدب الذي قيل في المديح، رجحت كفَّته جدًّا على الأدب الذي قيل لباعث نفساني.

وكذلك العلماء كانوا قسمين: قسمًا يتصل بالخلفاء والأمراء أو يشتغلون في مناصب الدولة كالخطابة والقضاء، وهؤلاء ميسورون نسبيًّا؛ ولذلك نرى كثيرًا من تآليف العلماء في هذا العصر إنما أُلفت بأمر وزير أو أمير أو نحوه، وصدَّره باسمه، ونَوَّه فيه بذكره، وأما من بعدوا عن القصور فكانوا فقراء غالبًا لا يكادون يجدون ما يسد رمقهم كما رأينا.

نشأ عن هذه الحالة الاجتماعية مظاهر متعددة: ترف لا حدَّ له في بيوت الخلفاء والأمراء وذوي المناصب، وفقر لا حدَّ له في عامة الشعب والعلماء والأدباء الذين لم يتصلوا بالأغنياء، ثم المظاهر التي تنتج عادةً من الإفراط في الترف كالتفنن في اللذائذ والاستهتار والنعومة وفساد النفس، وكل المظاهر التي تنشأ عن الفقر كالحقد والحسد والكذب والخبث والخديعة. وكان من أثر هذا الفقر أيضًا انتشار نزعة التصوف، فالفشل في الحياة قد يُسْلم صاحبه إلى الزهد، وإقناع النفس بأن نعيم الدنيا زائل، وإذا حُرِم الدنيا فليطلب الآخرة. كما كان من آثاره انتشار الدجل والتخريف، وتعلق الناس بالأسباب الموهومة في الحصول على الغنى لعجزهم عن تحصيله بالوسائل المعقولة؛ فتنجيم واعتقاد في الطوالع التي تسعد وتشقي، وانصراف إلى الكيمياء التي تقلب النحاس والقصدير ذهبًا، والالتجاء إلى دعوات الأولياء لعلَّ دعوتهم تتحقق فينقلب فقرهم غنى، وهذا إلى الاعتقاد في السحر والطِّلَسمات، والبحث عن الكنوز المخبوءة، ونحو ذلك.

وعلى الجملة فالحياة المالية مضطربة أشد الاضطراب، فمع سوء التوزيع والاختلاف الشديد بين درجة الغنى والفقر، والبذخ وشدة الحجة، نرى عدم الطمأنينة على المال من عدم احترام المِلْكية؛ وذلك بسبب شهوات الحكام وطمعهم فيما في أيدي الناس؛

فالوزير إذا عُزل صادر أمواله من يخلفه، والتاجر الكبير الثَّري عرضة لمصادرة الوالي له طمعًا في ماله، والغني إذا مات كانت أمواله عرضة للسلب والنهب، إما بادعاء أن ليس له ورثة معروفون ووضع العقبات في سبيل إثبات الوراثة، أو المجابهة بالمصادرة من غير ذلك أسباب. فالإخشيد في مصر كان إذا توفي قائد من قواده أو كاتب من كتَّابِه تعرض لورثته، وأخذ منهم وصادرهم، وكذلك كان يفعل مع التجار المياسير.

والوزير المهلبي لما مات قبض معز الدلة تركته وصادر عياله، وكذلك فُعل بابن العميد، وهكذا. ثم إن اضطراب الحالة المالية وعدم أمن الناس على أموالهم يُنتج حتمًا عدم انتظام الدخل والخرج فتسوء حالة الدولة، فيعالجونها بفرض الضرائب القاسية، والإمعان في المصادرات والنهب لكثرة ما يُطلب من نفقات الجيوش وأمثالها، فيكون ذلك علاجًا يضاعف المرض، وهو ما حدث فعلًا، وكلما ساءت الحال كثر العزل والتولية، وقُرِّب إلى الخلفاء والسلاطين مَن ضمن تعادل الميزانية، وإنما يضمن ذلك بالعسف الذي يئول إلى الخراب.

كان الناس طبقات مختلفة: طبقة تعتز بشرفها نسبها ودمها، من ذلك العلويون والعباسيون، وكلاهما معتز بالقرابة لرسول الله ﷺ؛ فالأوَّلون يعتزون بالنسبة لأولاد عليٍّ من فاطمة؛ والآخرون للعباس، وبينهما حزازات غالبًا.

ويفخر الأولون بأنهم أقرب نسبًا ويعتز الآخرون بالخلافة في أيديهم؛ وكان ذلك كله — على كل حال — مصدرًا للاعتزاز ومبعثًا لتقدير الناس، وكانت تُجْرَى عليهم أرزاق خاصة، وتُسند إليهم بعض المناصب الرفيعة كنقابة الأشراف.

ومن المعتزين بالنسب من كان يعتز بأصله من أنه من البيوتات القديمة، كأولاد المهلب بن أبي صفرة الأمير الأموي الكبير، وكانت لهم في هذا العصر العباسي دُور بالبصرة، وتولَّى الوزارة منهم لعضد الدولة البويهي الوزير المهلبي، وسيأتي ذكرُه، وكأولاد البَنويِّين وهم أبناء الخراسانيين الذي حاربوا لإسناد الدولة إلى بني العباس، ومنهم من كان يعتز بنسبه الفارسي إلى بيت من بيوت الملك أو البيوتات العظيمة في الفرس كآل بويه، وقد يكون من هذه الطبقة الأغنياء، وقد يكون منهم من أخنى عليه الدهر بعد العزِّ، فكان فقيرًا يكتفي بالاعتزاز بالنسب.

وهناك طبقة تعتز بمناصب الدولة كالوزراء ورؤساء الدواوين ونحو ذلك، ويعتز بذلك أسرهم وأقاربهم، وهؤلاء في هذا العهد كان اعتزازهم وقتيًّا، فيكونون في القمة حينًا، ثم لا يلبثون أن يكونوا في الحضيض حينًا آخر لكثرة ما يعرض لهم من عزل

ومصادرة أموال وقتل وتشريد، ثم طبقة الأغنياء من الإرث والتجارة والأعمال، وقد كانوا نسبيًّا عددًا محدودًا.

وهؤلاء المعتزون بالمنصب يعيشون في ترف مفرط، وهم الذين نعثر في كتب الأدب والتاريخ على وصف بذخهم وترفهم وإسرافهم، ولكنهم لا يمثلون الشعب، ويتبعهم الأوساط يقلدونهم على قدر استطاعتهم، ويطمحون إلى أن يحذوا حذوهم ما أمكنهم دخْلُهم.

وبجانب ذلك اعتزاز بالعلم أو الدين، ولكنه اعتزاز في أوساط خاصة؛ فالعلماء يعتز بهم أمثالهم وتلاميذهم ووسطهم المحدود، وهم يتعزون عن فقرهم بهذا الاعتزاز الأدبي. ورجال الدين من الصوفية والوعاظ والفقهاء كذلك يعتزون في أوساطهم الخاصة، وعند العامة الذين يلتمسون منهم البركة. ثم سائر الشعب بعد ذلك فقير لا يعتز بمال ولا نسب ولا جاه، ويصفهم ابن الفقيه بأنهم «زَبَد جُفاء، وسيل غثاء، لُكَع ولُكَاع، وربيطة اتضاع، همُّ أحدهم طعامه ونومه».

وليسوا كما قال، بل هم عماد الأمة وسوادها الأعظم، ومقياس الرقي الحقيقي لها، وما ذنبهم أن همَّهم طعامهم ونومهم وهم يجدُّون ثم لا يَجِدُون! لقد كان التوازن الاجتماعي في هذا العصر مختلًّا من الناحية المالية، فلا تقارب، وما نجده من وصف الإمعان في الحضارة والإسراف في الترف والتفنُّن في النعيم، إنما هو وصف فئة قليلة العدد، وهي قد أسرفت في الترف على حساب إمعان السواد الأعظم في البؤس، وفي الناحية الخلقية انحلال بين الأغنياء، وتكبُّر وتجبُّر من الساسة وأولي الأمر، وذلَّة وضعة في الفقراء البائسين، وما يروى لنا من عزَّة وإباء، وتمسُّك بالحق وبالفضيلة، فصفات الأقلِّين النادرين.

(١-٣) الرقيق

كثر الرقيق في هذا العصر كثرة بالغة، وامتلأت القصور به، وكان له أثر كبير في الحياة الاجتماعية، فكثر نسل الجواري واختلطت الدماء حتى الخلفاء أنفسهم كانوا في هذا العصر من نسل السراري، قال ابن حزم في «نقط العروس»: «لم يلِ الخلافة في الصدر الأول مَن أمُّه أَمَة حاشا يزيد وإبراهيم ابني الوليد، ولا وليها من بني العباس من أمه حرة حاشا السفاح والمهدي والأمين، ولم يلِها من بنى أمية بالأندلس من أمه حرَّة أصلًا.»

وكثر تعليم الجواري الغناء، واتخذ أصحابهن لهن بيوتًا معدَّة للسماع في الأحياء المختلفة، وكثرت هذه البيوت في بغداد في هذا العصر، حتى قال أبو حيان التوحيدي: «وقد أحصينا — ونحن جماعة في الكرخ — أربعمائة وستين جارية في الجانبين — جانبي بغداد — ومائة وعشرين حرَّة، وخمسة وتسعين من الصبيان البدور، يجمعون بين الحذف والحسن والظرف والعشرة، هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزَّته وحرسه ورقبائه، وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط في وقت، أو ثمل في حال، أو خلع العذار في هوى قد حالفه وأضناه.»[٣٧]

وهذه المحالُّ العامة للمغنيات كان يتردد عليها الناس للسماع، ولم يتحرَّج منها حتى العلماء والأدباء والقضاة والأعيان والصوفية، فابن فهم الصوفي يسمع مغنية اسمها «نهاية» جارية ابن المغني، وابن غيلان التاجر يسمع غناء «بلور» جارية ابن اليزيدي، وأبو الحسن الجراحي القاضي يسمع غناء «شعلة»، وأبو سليمان المنطقي الفيلسوف الكبير وشيخ أبي حيان يسمع غناء صبي موصلي فتن الناس في عصره، وهكذا.

والظاهر من قولهم أن محالَّ الغناء كان منها المتهتِّك الذي يناسب المعربدين، ومنها المتحفظ بعض الشيء الذي يناسب المتحفِّظين.

وما روي لنا يدل على أن الغناء في هذا العصر كان بالشعر العربي السهل القريب المعنى السائغ اللفظ والوزن؛ فقد روي أن قِنْوَة البصرية كانت تغني مثلًا:

يا ليتني أحيا بِقُرْبهمو　　فإذا فقدتهمُ انقضى عمري

و«سندس» تغنِّي:

مجلس صَبَّيْن عَمِيدَين　　ليسا من الحب بِخلْوَين
قد صيَّروا روحيهما واحدًا　　واقتسماه بين جسمين
تنازعا كأسًا على لذَّة　　قد مزجاها بين دمعين
الكأس لا تحسن إلا إذا　　أدَرْتها بين محبَّيْن

و«درة» تغنِّي:

لست أنسى تلك الزيادة لمَّا طرقَتْنا وأقبلت تتثنَّى
طرقت «ظَبيةُ» الرصافة ليلًا فهي أحلى مَنْ جَسَّ عودًا وغنَّى
كم ليال بتنا نلذُّ ونلهو ونُسَقَّى شرابنا ونُغَنَّى
هجرتنا فما إليها سبيل غير أنَّا نقول كانت وكنَّا!

وإذا بلغت: «كانت وكنا» زلزلت الأرض «فرأيت الجيب مشقوقًا والدمع منهملًا، ومكتوم السرِّ باديًا».

و«عَلْوة» تغني في «درب السِّلْق» ببغداد:

بالورد في وجنتيك! مَنْ لطمك ومن سقاك المدام، لمْ ظلمك
خَلَّاكَ لا تستفيق مِن سُكُر توسع شتمًا وجفوةً خَدَمك
معقربَ الصدغ! قد ثَمِلْتَ فما يمنع من لثم عاشقيك فمَك
أظلَّ من حَيْرة ومن دهش أقول لمَّا رأيت مبتَسمك
بالله يا أقحوان مضحكة على قضيب العقيق مَنْ نظمك؟

و«روْعة» جارية ابن الرضى تغني في الرصافة:

وحقِّ محل ذكرك من لساني وقلبي حين أخلو بالأماني
لقد أصبحت أغبط كل عين تعانيها فتسعد بالعِيان

وهكذا شعر سهل ومعان قريبة كلها تدور حول العشق والغرام والهجر والوصال.

وكانوا في هذه المجالس يطربون طربًا صاخبًا، فمنهم من يشقُّ إزاره، ومن يضرب بنفسه الأرض، ومن يحملق عينيه، ومن يستغيث، ومن يحوقل[٣٨] ... إلخ، وكانت هذه البيوت تسمى «بيوت القيان»، والقينة في اللغة: الأمة مغنية كانت أو غير مغنية، ولكنها في العرف لا تطلق إلا على الأمة المغنية.

ومن هؤلاء القيان من كن يتاجرن بالعشق والغناء، فيوقعن في أحبالهن الشبان الموسرين حتى يستنزفن مالهم ثم يلفظنهم. وقد وصف واصف هذه الحالة أدق وصف فقال: «إن القينة منهن إذا رأت في مجلس فتى له غنى وكثرة مال ويسار وحسن حال

مالت إليه لتخدعه ... ومنحته نظرها وأشارت إليه بكفها، وغمزته بطرفها، وغنَّت على كاساته، ومالت إلى مرضاته، حتى توقع المسكين في حبالها، وتحويه بلطف تملُّقها، وتستعين بالمكر والخداع، ثم ترسل إليه من يخبره عن سهرها وقلقها، وتعبث إليه بخاتمها، وخصلة من شعرها، وكتاب قد نمَّقته بظرفها، ونقطت عليه قطرات من دمعها، وختمته بالغالية والعنبر ... حتى إذا حوت عقله، وسلبت قلبه، أخذت في طلب الهدايا من ثياب وحلي، وشكت من غير ألم؛ لتتوالى عليها هداياه، حتى إذا نفد اليسار، وتلق المال، وأحسَّت بالإفلاس أظهرت الملل، وأعلنت البدل، وتبرمت بكلامه، وضجرت بسلامه، وأخذت في الجفاء والعتاب، وصرفت عنها هواه، ومالت إلى سواه.»

وقد قال أحد الشعراء في مثل هذا الوصف:

صحوت فأبصرت الغواية من رُشدي ... وأيقنت أني كنت جُرت عن القصد
فلا يعْشَقَنْ من كان يعشق قينة ... فما هو منها في سعيد ولا سعد
تـودُّك مـا دامـت هـدايـاك جـمَّـة ... وترفدْك عشقًا ما بقيت أخا رفد
إذا ما رأت في مجلس من تخاله ... غـنـيًّـا حـبـتـه بـالـتـحـيـة والـودِّ
فذا دأبها حتى يعود من الهوى ... سـقـيـمَ فـؤادٍ مـا يُـعـيـد ولا يـبـدي
فتَفْصد لا من حاجة لِفصادِها ... ولكن لتكليف الهدية في الفصْد
فمن بين خلخال يُصاغ وخاتم ... ومن دملج يُهدَى على أثر العقد
فذا فعلها حتى إذا عاد مفلسًا ... تجنَّت وأبدت جانب الهجر والصد
فقولا لمن يهوى القيان تفهَّموا ... مقالي فإني قد نصحت لكم جهدي[٣٩]

ونشأ عن هذا جدل في أيهما خير: عشق القيان أو عشق الحرائر؟ فيقول بعض الظرفاء:

ليس عشق الإماء من شكل مِثْلي ... إنـمـا يـعـشـق الإمـاءَ الـعـبـيـدُ
صِلْ إذا ما وصلت حرَّة قوم ... قـد حـمـاهـا آبـاؤهـا والـجـدودُ

ويقول غيره: «عليك بالقيان فإن لهن فطنًا وعقولًا ليست لكثير من النساء.»

وقد كان من أثر الطابع العلمي الذي طَبع هذا العصر أن تعرض العلم لهؤلاء الإماء يؤلف فيهن الكتب، فألف ابن بطلان كتابه العلمي في تجارة الرقيق.[٤٠] وتبعه

غيره، فذكروا أجناس العالم وأوصاف الرقيق من كل جنس، وما يمتزن به، وما يعاب عليهن، والأعضاء وأوصاف الحسن فيها وأوصاف عيوبها، ودلائل الفراسة على حال الغلام أو الجارية، وحيل النخَّاسين، وكيف يسترون العيوب ... إلخ.

كما فلسفوا الكلام في الحُسن، وحاولوا وضع قواعد للجمال، ووجد من يسمَّى «جهابذة النقد» وهم الخبراء في الجمال، قال أبو الفرج: «أكثر البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذة النقد، يقدمون المجدولة التي تكون بين السمينة والممشوقة، ولا بد أن تكون كاسية العظام ...» إلخ.

وتكلموا في الألوان وحسنها، وقال أبو الفرج الأصفهاني:[٤١] «يمازج البياض لونان يزيدانه حسنًا: الحمرة والصفرة، فأما الحمرة فتعتري البياض من رقَّة اللون وصحة الدم، وأما الصفرة فتعتري البيض لاستهتارهن وملازمتهن الكنَّ والنعمة والخفض والدعة، وتعتريهن أيضًا لملازمتهن التضمُّخ بالطِّيب، ويقال إن المرأة إذا كانت عتيقة الحسن ناعمة البدن فإن لونها يكون من أول النهار إلى ابتداء العشية يضرب إلى الحمرة، ومن ابتداء العشية إلى آخر الليل يضرب إلى الصفرة.» وأفاضوا في ذكر محاسن كل عضو وعيوبه من الشَّعر والجبين والحواجب والعيون والأنوف والخدود والشفاه والثغور والأعناق والمعاصم والأعضاء، والأنامل وتطريفها بالحمرة والسواد، والنحور والصدور والثدي، واختلاف الأذواق في كبرها أو صغرها، والخصور والسوق والأقدام، ومزجوا ما قيل في كل ذلك من التعبير الدقيق في اللغة بما قيل من عيون الأدب بما قاله جهابذة النقد.

كما تفنَّنوا في دقَّة الفروق بين المغنيات، وفلسفة الغناء، «فَعَلْوَة» أحسن ما تكون إذا رفعت عقيرتها، و«نهاية» إذا اندفعت في شدوها، و«بلُّور» إذا رجَّعت، و«قَلَم» إذا تنوأت في استهلالها، وتضاجرت على ضجْرتها، وتذكرت شجوها الذي قد أضناها وأنضاها، و«سندس» إذا تشاجَت وتدللت وتفَتَّلت وتقَتَّلت وتكسَّرت.

وتفلسفوا هل الغناء لذَّة الحس أو لذة العقل؟ ولِمَ يكون الغناء ألذَّ وأطيب إذا سند المغني آخر؟ وهكذا.[٤٢]

وكان الرقيق صنفين متميزين: صنف أبيض، وصنف أسود ويشمل الحبْشان؛ فالصنف الأبيض كان من الترك والصقالبة، والأرمن واليونان، وكانت أكثر أسواقه سوق سمرقند ويأتي إليها رقيق تركستان وما وراء النهر والبلغار، وسوق شرق أوروبا وهو يخترق ألمانيا إلى الأندلس، وإلى موانئ إيطاليا وفرنسا إلى الشرق، والصنف الأسود كان يجلب من السودان والحبشة وما إليهما.

وكان الرقيق الأبيض أغلى ثمنًا وأكثر قابلية لتعلُّم الفن والموسيقى، وكلما مهرت في فنِّها بولغ في ثمنها، وكانت هناك أسواق في كل مدينة كبيرة للرقيق، سوق كبيرة فيها حُجَر يسكنها الرقيق المعرَّض للبيع، وهذا شأن الرقيق الشعبي، أما الرقيق الخاص الممتاز فيعرضه التجار على الأمراء والأغنياء، أو يعرضونه في بيوتهم الخاصة، كما كان أصنافًا من نساء وفتيان ورجال.

وقد قام هذا الرقيق على اختلاف أنواعه بأعمال كثيرة، وتغلغل في الحياة الاجتماعية؛ فمنهم من كانوا جنودًا وقوادًا تستعين بهم الدولة في حروبها، حتى لقد بلغ بعضهم أرقى المناصب، مثل مؤنس في العراق، وجوهر الصقلي في المغرب ومصر، وكافور الإخشيدي بمصر، وسبكتكين في الأفغان.

ومنهن القيان في محال الغناء العامة، ومنهن أمهات الأولاد، وملك اليمين، يتغلغلن في بيوت الخلفاء والأمراء، والأغنياء والأواسط، ومنهن من يقمن في الخدمة في البيت، وقد يبلغن منزلة عالية.

ومن الرجال الأرقَّاء من يقوم بالأعمال الصناعية والتجارية لسادته، ومنهم طبقة الخصيان، وقد انتشرت في هذا العصر انتشارًا كبيرًا.

وقد كثر الخصاء في عهد الأمين، فقد قالوا: إنه بلغ من كلَفه بالخصيان أنه «طلبهم وابتاعهم، وغالى بهم، وصيَّرهم لخلوته في ليله ونهاره، وقوام طعامه وشرابه، وأمره ونهيه».[٤٣]

وقد عقد الجاحظ فصلًا ممتعًا في كتابه «الحيوان» للخصاء وتأثيره في الجسم والصوت والشعر والأعصاب، وفي الذكاء، كما عرض لأصناف الخصيان من السند والحبشة والنوبة والسودان. ويقول: إن الروم أول من ابتدع الخصاء ... إلخ.[٤٤]

وكان الخصاء في البيض والسود، وقلَّ أن كان المسلمون يقومون بالخصاء، ولكنهم يشترونهم بعد أن يُخْصَوا، وقد ارتفعت أثمانهم لتعرُّضهم للموت من هذا العمل.

وكثر في عصرنا الذي نؤرخه استخدامهم في بيوت الخلفاء والأغنياء، حرصًا على النساء، ومنهم من نبغ في القيادة الحربية، كمؤنس القائد، وفائق قائد السامانيين، وبلغ بعضهم منزلة عالية في الإشراف على القصور والحظوة عند الأمراء، كشكر غلام عضد الدولة.

ثم الغلمان في الأوساط المستهترة، حتى وعند بعض الأدباء والعلماء، ونلاحظ ندرة هذا أيام سلطة العنصر العربي في صدر الإسلام. ويحكي الجاحظ أن هذا الولع

بالغلمان نشأ في الخراسانيين؛ إذ كانوا يخرجون في البعوث مع الغلمان، وذلك حين سنَّ أبو مسلم الخراساني ألا يخرج النساء مع الجند، خلافًا لبني أمية الذين كانوا يسمحون بخروج النساء مع العسكر.[٤٥]

فلما جاء هذا العصر نجد الكثير من أحاديث الغلمان في كتب الأدب، وتراجم الرجال والأدباء. ويحدثنا أبو حيان التوحيدي أنه كان في بغداد خمسة وتسعون غلامًا جميلًا يغنون للناس، وأنه كان بها صبي موصلي مغن، ملأ الدنيا عيارةً وخسارة، وافتضح أصحاب النسك والوقار، وأصناف الناس من الصغار والكبار، بوجهه الحسن، وثغره المبتسم، وحديثه الساحر، وطرفه الفاتر، وقده المديد، ولفظه الحلو، ودلِّه الخلوب ... يسرقك منك، ويردك عليك ... فحاله حالات، وهدايته ضلالات، وهو فتنة الحاضر والبادي.[٤٦] كما يحدثنا عن عَلوان غلام ابن عُرس؛ فإنه إذا حضر وألقى إزاره، وحلَّ أزراره، وقال لأهل المجلس: اقترحوا واستفتحوا فإني ولدكم، بل عبدكم لأخدمكم بغنائي وأتقرب إليكم بولائي ... لا يبقى أحد من الجماعة إلا وينبض عرقه، ويهش فؤاده ويذكو طبعه، ويفْكه قلبه، ويتحرك ساكنه، ويتدغدغ روحه ... إلخ.[٤٧]

وتفننوا في أسماء الغلمان بما يدل على مقصدهم، فسموا بـ «فاتن»، و«رائق»، و«نسيم»، و«وصيف»، و«ريحان»، و«جميلة» — هكذا بأداة التأنيث — و«بشرى».

ومن هذا نرى كيف أثَّر الرقيق أثرًا كبيرًا من الناحية الاجتماعية والحربية والمالية والأخلاقية.

(٢) الأدب وتصوير الحياة الاجتماعية

كان النتاج الأدبي في هذا العصر من نظم ونثر صورة صحيحة للحياة الاجتماعية في غناها وترفها من جانب، وفقرها وبؤسها من جانب، وفي اضطراب الشئون السياسية والحياة الاجتماعية، وفي حياة اللهو وحياة الجد، وفي انحلال الأخلاق، وانغماس الأدباء فيها، ونعي بعضهم عليها، إلى غير ذلك من المظاهر، ولعل خير ما يمثل أدب هذا العصر كتاب «يتيمة الدهر» للثعالبي.

وربما كان أكبر من يمثل كُتَّاب النثر: ابن العميد، وابن عباد، والخوارزمي، وبديع الزمان الهمذاني، وأبو حيان التوحيدي، كما كان أكبر من يمثل الشعر: المتنبي، وابن حجاج، والشريف الرضي، وأبو العلاء المعري، والصنوبري.

لقد كان من أعلام الكتَّاب من هم من الطبقة العليا في المجتمع، كابن العميد، وابن عباد، والوزير المهلبي، والخصيبي، والإسكافي وزير السامانيين، ويلحق بهم أمثال إبراهيم بن هلال الصابي الذي كاد يكون وزيرًا.

فهؤلاء — بحكم جاههم وعزِّهم وترفهم — كان نتاجهم الأدبي مترفًا يتأنق في فنه؛ فأناقة الملبس والمأكل والمعيشة جديرة بأن تحمل أصحابها على التأنق في الأدب، فأدب هذا العصر تقدم خطوات في السجع والمحسنات اللفظية، والمبالغة البلاغية، فالصابي وابن عباد أفرطا في السجع، وكادا يلتزمانه، وغيرهما يسجع وإن كان لا يلتزم، هذا إلى الإمعان في الاستعارات والمجازات والتشبيهات، وتفننوا في تزيين الكتابة تفنن أصحاب الطُّرف فيما يصنعون من حليٍّ وأدوات زينة، وإذ كانوا في مركز رئيسي في الحياة الاجتماعية كان طبيعيًّا أن يكون نتاجهم هو المثل يقلَّد ويحتذى، فمن كان أديبًا فقيرًا تشبه بهم وحذا حذوهم، وهم بذلك قد خلقوا ذوقًا عامًّا في الأدب يستحسن طريقتهم، فجارى الأدباء هذا الذوق، كما تراه عند الثعالبي في كتبه فيما يُنْشِئ وفيما يَرْوي.

وأبو حيان يصف الصاحب ابن عباد بقوله: «كان كلفه بالسجع في الكلام والقلم، عند الجدِّ والهزل، يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد. قلت لابن المسيبي: أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع؟ قال: يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجعة ينحل بموقعها عروة الملك، ويضطرب لها حبل الدولة، ويحتاج من أجلها إلى غرم ثقيل، وكلفة صعبة، وتجشم أمور، وركوب أهوال، لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخليها، بل يأتي بها ويستعملها، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها.»

هذا إلى الإمعان في المبالغة كقول الصابي: «وصل كتاب قاضي القضاة بالألفاظ التي لو مازجت البحر لأعذبته، والمعاني التي لو واجهت دجى الليل لأزاحته وأذهبته.»

ويقول بديع الزمان الهمذاني لرجل طلب إليه نسخة من رسائله: «ولو قدرت جعلت الورق من جلدي، بل من صحن خدي، والقلم من بناني، والمداد من أجفاني.»

وإلى السجع والمبالغة ضروب من التزاويق، ككثرة التشبيه والاستعارة من مثل قول الصاحب في وصف مجلس: «قد تفتحت فيه عيون النرجس، وتوردت فيه خدود البنفسج وفاحت مجامر الأترج، وفتقت فارت النارنج، وانطلقت ألسنة العيدان، وهبَّت رياح الأقداح، ونفقت سوق الأنس، وامتدت سماء الند.»

هذا إلى مثل عمل قطع أدبية خالية من بعض حروف الهجاء، أو تقرأ طردًا وعكسًا ... إلخ.

فهذه التزاويق اللفظية صدى للتزاويق في الحياة الاجتماعية، ونرى كثيرًا من الأدب في هذا العصر شكلًا تنقصه الروح، كما كانت الحياة الاجتماعية المترفة كذلك شكلًا بلا روح.

ويتصل بهذا شيوع المقطوعات الشعرية القصيرة بجانب القصائد الطويلة، ويقابله في الموسيقى الميل إلى ما نسميه «الطقاطيق» بجانب «الأدوار».

ولعل هذا نشأ من كثرة المجالس الأدبية غير الرسمية في منازل الأصدقاء والأغنياء والأدباء، وحبهم للمُلح والتنادر ووصف ما يعرض، فأبيات قصيرة في الغزل تحوي معنًى واحدًا رشيقًا، وأبيات فيما يعرض من النوادر، كأبيات في إنسان ساقط يلبس عمامةً سَرية،[٤٨] وفي إنسان شريف الأصل وضيع النفس،[٤٩] وإنسان تولَّى أقطاعًا فوجدها خربة، وفي المهاداة بالنبيذ وفي وصف مجلس أنس، وفي شكر على هدية، وفي هجاء بخيل أو ثقيل، وفي صف زهر أو تمر،[٥٠] وفي معنًى عَرَض، أو حادث حدث[٥١] ونحو ذلك. وقد أكثروا من هذه المقطوعات حتى زاحمت القصائد.[٥٢]

هذه ناحية، وناحية أخرى وهي قوة أثر الرقيق في الناحية الاجتماعية، وانعكاس صورتها في الأدب؛ فقد ملئ أدب ذلك العصر بوصف القيان والجواري البيض والسود والغلمان، حتى لا نكاد نجد شاعرًا إلا وله شعر في هذا الباب.

فقيل الكثير في وصف الجواري البيض وحسنهن، وكان هذا شيئًا مألوفًا، وسموا النساء البيض الحسان الحُمْر، وقال شاعرهم:

هِجَانٌ عليها حمرة في بياضها يروق بها العينين والحسنُ أحمر

وشبهوهن بالنار من أجل ذلك، ولكن هَامَ بعض الشعراء بالجواري السود ودافعوا عن حبهنَّ، فأكثر من ذلك الشريف الرضي، فقال من قصيدة:

أحبكِ يا لون الشباب فإنني رأيتكما في العين والقلب توأما
سواد يود البدر لو كان رقعةً بجبهته أو شقَّ في وجهه فما
سكنتِ سواد القلب إذ كنتِ مثله فلم أدر مِن عِزٍّ مَنِ القلبُ منكما
وما كان سهم العين لولا سواده لِيبلغَ حبات القلوب إذا رمى
إذا كنت تهوى الظبي أَلَمى فلا تلم جنوني عن الظبي الذي كله لَمى

وله قصيدة أخرى في هذا المعنى منها:

لاموا ولو وجدوا وجدي لقد عَذروا ... وذنب من لام ذنبٌ غير مغتفر
لما تمادَوْا على عذلي أجبتهمو ... بعزِّ معترف لا ذل معتذر
أهوى السواد برأسي ثم أمقته ... فكيف يختلف اللونان في نظري؟!
إني علقت سواد اللون بعدكمو ... علاقة تشمت الظلماء بالقمر
لو لم يكن فوق لون البيض ما رقمت ... صِبْغ الليالي على الأجياد والعُذُر
والليل أستر للخالي بلذته ... والصبح أفضح للساري على غَرر
وللفتى في ضلال الليل معذرة ... وما له في الضحى إن ضلَّ من عذر
وكيف يذهب عن قلبي وعن بصري ... من كان مثل سواد القلب والبصر

وقبله استوفى هذه المعاني ابن الرومي في قصيدة طويلة منها:

أكسبها الحسنَ أنها صُبِغت ... صِبغة حَب القلوب والحدق
يفتر ذاك السواد عن يقق ... من ثغرها كالآلئ النسق
كأنها والمزاح يضحكها ... ليل تفرَّى دجاه عن فَلَق

وقال السَّلَامي:

يا رُبَّ غانية بيضاء[٥٣] تصحبني ... من العتاب كئوسًا ليس تنساغ
أشتاق طرتها أم صدغها ومعي ... من كلها طرر سود وأصداغ

وقد قالوا: إن ابن سكرة الشاعر قال في قينة سوداء اسمها «خمرة» عشرة آلاف بيت ... إلخ إلخ.

كما تفننوا في وصف القيان وغنائهن وأكثروا، وزعيمهم في ذلك ابن الرومي، كقصيدته في «وحيد» المغنية:

ظبية تسكن القلوب وترعا ... ها وقُمرية لها تغريد
حسنها في العيون حسن جديد ... فلها في القلوب حب جديد

تتغنى كأنها لا تُغَنِّي من سكون الأوصال وهي تجيد
مد في شأو صوتها نَفَسٌ كا فٍ كأنفاس عاشقيها مديد

... إلخ.

ويقول في وصف قينة مغنية وراقصة:

فتاة من الأتراك ترمي بأسْهُم يصبن الحشا في السلم لا في المعارك
ظللنا لها نُصْبًا تشك قلوبنا بذاك الشجا الفتَّان لا بالنيازك
تطامَنَ عن قدٍّ الطوال قوامُها وأربى على قدِّ القصار الحواتك
إذا هي قامت في الشفوف أضاءها سناها فشفَّت عن سبيكة سابك

وتبعه الشعراء في هذا العصر الذي نؤرخه، وتفننوا في وصف القينات، فقال ابن زريق الكوفي في قينة تسمى «دبسية» حسنة الغناء قبيحة المنظر:

أبا سعيد أَصِخ لي يا سيدي ونديمي
مُنيت أمس بأمرٍ من الأمور عظيم
حصلت عند صديق حر ظريف كريم
أسقى على شدو «دبْسـ ـية» فتنفي همومي
فكنت حين تغني لدى جِنان النعيم
وإن نظرتُ إليها ففي العذاب الأليم
وإن شربت بصوت فالراح بالتسنيم
وإن شربت بلحظ فالمهل بالزَّقوم
فكان سمعي بخير ومقلتي في الجحيم

... إلخ إلخ.

والطامة الكبرى ما غشي المجتمع من حب للغلمان ظهر صداه في الأدب.

لقد كان أبو نواس يغنِّي في هذا الباب وحده أو مع فئة قليلة، فلما جاء هذا العصر كان أكثر الشعراء يطرقون هذا الباب، ويفيضون فيه في تحفظ حينًا، وفي استهتار أحيانًا، كأبي تمام والبحتري والصنوبري، وكُشاجم وأبي الفتح البستي وابن حجاج، وابن سكرة، والقاضي التنوخي، والثعالبي، وأبي فراس، والصابي كلهم له أشعار كثيرة

في هذا الباب تفننوا فيها، حتى الوزير المهلبي لم يمنعه منصبه أن يقول في مملوك تركي جميل قاد جيشًا لمحاربة بني حمدان:

ظبْي يَرِق الماء في وَجناته ويروق عُوده
ويكاد من شِبْه العذا رى فيه أن تبدو نُهوده
ناطوا بمعقد خصره سيفًا ومِنطقة تئوده
جعلوه قائد عسكر ضاع الرعيل ومَن يقوده

وكان هؤلاء الغلمان مملوكين كما تملك الجواري، يقومون بالخدمة في البيوت وفي الأعمال التجارية، وهؤلاء الشعراء يتغزلون فيمن يملكون أو يملكه غيرهم. ومن أشهر قصائد ذلك العصر قصيدة سعيد الخالدي التي يصف فيها غلامه بأنه معشوقه، وخازن داره، ومدبر ماله، وناقد شعره، وطاهيه ونديمه، وغدت القصيدة مضرب المثل في هذا الباب:

ما هو عبدٌ لكنه ولد خوَّلينه المهيمن الصمد
شدَّ أزري بحسن خدمته فهو يدي والذراع والعضد
صغير سن كبير منفعة تمازج الضعف فيه والجلَد

* * *

أنسي ولهوي وكل مأربتي مجتمع له فيه ومنفرد
خازن ما في داري وحافظه فليس شيء لديه يفتقد
ومنفق مشفق إذا أنا أسـ ـرفت وبذرت فهْوَ مقتصد
ويعرف الشعر مثل معرفتي وهو على أن يزيد مجتهد
وصيرفي القريض وزان ديـ ـنار المعاني الرقاق منتقد
يصون كتبي فكلها حسن يطوي ثيابي فكلها جدد
وأبصر الناس بالطبيخ فكالـ ـمسك القلايا والعنبر الثرد

... إلخ.

بل نرى من هذا ظاهرة غريبة، وهي عدم تحرج ذوي المناصب الكبيرة كالوزراء والقضاة من كثرة القول في هذا الباب، مما يدل على أن الرأي العام قد فتر استنكاره له، وعده من باب الظرافة والمجون إلا في الأوساط المتشددة، كالذي ذكر أبو حيان التوحيدي من أن أبا عبد الله البصري كان يسمع غلامًا يغني:

أنسيتَ الوصل إذ بتـ ـنا على مرقد وَرْد
واعتنقنا كوشاح وانتظمنا نظم عِقد
وتعطفنا كغصنيـ ـن فقدَّانا كقد

فطرب أبو عبد الله طربًا شديدًا، فعابوه على ذلك، وقدحوا في دينه وألصقوا به الريبة.[٥٤]

وظاهرة أخرى وهي أن كثرة المجون، والخلاعة، واللهو واللعب في هذه الأوساط الاجتماعية أنتجت شاعرين يمثلان هذا أشنع تمثيل، وهما: ابن حجاج وابن سكَّرة؛ فابن حجاج قال فيه الثعالبي: «إنه في شعره لا يستتر من العقل بسجف، ولايبني جلَّ قوله إلا على سخف ... يمد يد المجون فيعرك بها أذن الحزم، ويفتح جراب السخف فيصفع بها قفا العقل.» وقد استعمل في شعره بعض ألفاظ العوام، وشبَّه أفظع التشبيهات وأشنعها، ومع هذا كله راج شعره رواجًا كثيرًا، فكان يباع ديوان شعره من خمسين دينارًا إلى سبعين، ونفق شعره عند العامة والخاصة «فكانت تتفكه الفضلاء بثمار شِعره، وتستملح الكبراء ببنات طبعه، وتستخفُّ الأدباء أرواح نظمه، ويحتمل المحتشمون فرط رفثه وقذعه ... ولقد مدح الملوك والأمراء والوزراء والرؤساء، فلم يُخل قصيدة فيهم من سفاتج هزله، ونتائج فحشه، وهو عندهم مقبول الجملة، غالي مهر الكلام، موفور الحظ من الإكرام والإنعام».

ومثله ابن سكَّرة، قال فيه الثعالبي أيضًا: «فائق في قول المُلَح والظرف، أحد الفحول الأفراد، جار في ميدان المجون والسخف ما أراد.»

ولم يتحرجا من أن يقولا أقبح المعاني في أصرح لفظ، ومع ذلك جرى شعرهما في الناس، واختار الثعالبي منه أخفَّه، وهذا الأخف مقذع شنيع؛ فرواج هذا الشعر أكبر دليل على ما وصل إليه الانحلال الخلقي في هذا المجتمع.

هذه الصورة للأدب تصور الحياة الاجتماعية في نعيمها وترفها، ولهوها ومجونها. وثَمَّ وجه آخر هو الفقر والبؤس والتحايل على كسب العيش انعكست صورته على الأدب أيضًا.

من ذلك أن جماعة رأوا حياة الأغنياء والتجار والأدباء والعلماء في حرج وشدَّة، فالأغنياء يصادَرون، والتجار ترهقهم الضرائب، والأدباء والعلماء لا يجدون ما يأكلون إلا إذا اتصلوا بأمير، فاتخذوا وسيلتهم في كسب العيش التسول عن طريق الأدب الشعبي أحيانًا، والنصْب والاحتيال أحيانًا، ووُجدت طائفة كبيرة من هذا القبيل سُمُّوا الساسانيين أو بني ساسان، أو أهل الكُدية.

وساسان هذا قد رووا فيه أقوالًا مختلفة، فمن قائل إنه ساسان بن أسفندريار، كان من حديثه أنه لما حضر أباه الوفاة فوَّض أمر الحكم إلى ابنته، فأنف ساسان من ذلك، واشترى غنما وجعل يرعاها، وعُيِّر بأنه راعي الغنم، فقيل ساسان الراعي، وساسان الكردي، ثم نسب إليه كل من تكدَّ «تسوَّل» فيقال فلان بن بني ساسان. وقيل كان ساسان ملكًا من ملوك العجم حاربه دارا ملك الفرس، ونهب كل ما كان له، واستولى على ملكه فصار رجلًا فقيرًا يتردد في الأحياء ويستعطي، فضرب به المثل. وقيل إنه كان رجلًا فقيرًا بصيرًا في استعطاء الناس والاحتيال، فنسبوا إليه.

وكانت طائفة يتجول أفرادها في البلاد يستجدون ويحتالون، وكان عند بعضهم مقدرة أدبية يحتالون بها على الناس كشأن ما نسميهم في مصر «الأدباتية»، وعند بعضهم دهاء وحيل لابتزاز المال.

هذه الطائفة كان من صداها في هذا العصر ظهور نوع من الأدب جديد هو مقامات بديع الزمان الهمذاني، ثم الحريري، وكلها حكايات قصيرة تدور كل منها حول حيلة يحتالها رجل لكسب شيء من المال عن طريق التكدي، صيغت في أسلوب أدبي. وكل مقامات البديع بطلها أبو الفتح الإسكندري، وكل مقامات الحريري بطلها أبو زيد السروجي، والبطل يحتال لقنص المال في كل مقامة.

وقد ورد ذكر الساسانيين في مقامات بديع الزمان، وأوضح لنا الحريري في مقامته المسماة بالمقامة الساسانية كثيرًا من البواعث الدافعة على التسول، فقال: «سمعت أن المعايش إمارة، وتجارة، وزراعة، وصناعة، فمارست هذه الأربع؛ لأنظر أيها أوفق وأنفع، فما أحمدت منها معيشة، ولا استرغدت عيشة، أما فرَص الولايات، وخُلَس الإمارات، فكأضغاث الأحلام، والفيء المنتسِخ بالظلام، وناهيك غصة بمرارة الفِطام، وأما بضائع

التجارات فعرضة للمخاطرات، وطُعمة للغارات، وما أشبهها بالطيور الطائرات، وأما اتخاذ الضياع، والتصدي للازدراع، فمنهكَة للأغراض، وقيود عاتقة عن الارتكاض، وقلما خلا ربها عن إذلال، أو رُزق رَوْح بال، وأما حِرَف أولي الصناعات فغير فاضلة عن الأقوات، ولا نافقة في جميع الأوقات ... ولم أر ما هو بارد المغنم، لذيذ المطعم، وافي المكسب، صافي المشرب؛ إلا الحرفة التي وضع ساسان أساسها، ونوَّع أجناسها، وأضرم في الخافقين نارها، وأوضح لبني غبراء منارها ... إذ كانت المتجر الذي لا يبور، والمنهل الذي لا يغور ... وكان أهلها أعز قبيل، وأسعد جيل، لا يرهقهم مسُّ حيف، ولا يقلقهم سلُّ سيف ... ولا يرهبون ممن برق ورعد، ولا يحفلون بمن قام وقعد ... أينما سقطوا لقطوا، وحينما انخرطوا خرطوا، لا يتخذون أوطانًا، ولا يتقون سلطانًا.»

ثم بيَّن شروط النجاح فيها، وقال: إنها تحتاج إلى النشاط والحركة، وإلى الفطنة، وإلى القحة، وإلى المكر والحيلة، وروى أنه كان مكتوبًا على عصا شيخنا ساسان: «من طَلَب جَلَب، ومن جال نال.» كما أنها تحتاج إلى الخَلْب بصوغ اللسان، وسحر البيان، والصبر، وعدم اليأس، وتفضيل الذَّرة المنقودة على الدرة الموعودة ... إلخ.

واشتهر من شعراء بني ساسان في القرن الرابع شاعران كبيران يعاصران البديع، ويسبقان الحريري، وهما الأحنف العكبري، وأبو دلف الخزرجي. فالأحنف كان آدب بني ساسان ببغداد، وقد اشتهر بالظرف والشعر الرقيق في الحرفة الساسانية، كقوله:

قد قسَّم الله رزقي في البلاد فما ... يكاد يُدْرَك إلا بالتفاريق
ولست مكتسبًا رزقًا بفلسفة ... ولا بشعر ولكن بالمخاريق
والناس قد علموا أني أخو حِيَلٍ ... فلست أنفق إلا في الرساتيق

ووضع قصيدة دالية في هذه الحرفة يقول فيها:

على أني بحمد الله ... في بيت من المجْد
بإخواني بني ساسا ... ن أهل الجِدِّ والجَدِّ
لهم أرض خراسان ... فقاشان إلى الهند
إلى الروم إلى الزنج ... إلى البلغار والسند
إذا ما أعوز الطرقُ ... على الطرَّاق والجند

حـذارًا مـن أعـاديـهـم مـن الأعـراب والـكـرد
قـطـعـنـا ذلـك الـنـهـج بـلا سـيـفٍ ولا غِـمـد
ومـن خـاف أعـاديـه بنا في الروع يستعدي[٥٥]

وأبو دلف كان من الواردين على الصاحب بن عباد في الري، وقد طوَّف البلاد مكديًّا، وحاكى الأحنف العكبري في داليته الساسانية برائية مثلها مطلعها:

جفون دمعها يجري لطول الصدِّ والهجر

ومنها:

على أني من القوم الـ ـبـهـالـيـل بـنـي الـغـر
بني ساسان والحامي الحمى في سالف العصر
فنحن الناس كل النا س في البرِّ وفي البحر
أخذنا جزية الخلق من الصين إلى مصر
إلى طنجة بل في كـ ـل أرض خيلنا تسري
لنا الدنيا بما فيها من الإسلام والكفر
فنصطاف على الثلج ونشتو بلد التمر

... إلخ.

وقد استعمل في هذه القصيدة الألفاظ الاصطلاحية لبني ساسان، وأبان كثيرًا من أنواع حيلهم، وطريقة ابتزازهم أموال الناس، فمن باب استعمال الألفاظ — مثلًا — استعماله دَوَّر إذا دار على السكك والدروب وسخر بالنساء، ورَعَّس بمعنى طاف على حوانيت الباعة، فأخذ من هنا جوزة ومن هنا لوزة؛ «والكَذَّابات» بمعنى العصابات يشدونها على جباههم يوهمون بها أنهم مرضى ... إلخ.

واستعمال الحيل مثل إيهام الناس أنه يجمع الصدقة للخروج إلى الغزو، أو يحتال على من أصيب بوجع الضرس فيجعل دود الجبن فيما بين أسنانه ثم يخرجه ويوهم أنه أخرجه بالرقية، أو يتعامى وهو بصير، أو ينظر في الفال والزجر والنجوم، أو يعطي قومًا دراهم حتى يأتوا ويسألوا عن نجمهم تحميسًا للناس أن يحذوا حذوهم ... إلخ.

ولهم لغة خاصة وأدب خاص واصطلاحات لا يكاد يفهمها غيرهم، وتسمى «مناكاة بني ساسان».

قال الثعالبي في وصف الصاحب بن عباد: «وكان الصاحب يحفظ مناكاة بني ساسان حفظًا عجيبًا، ويعجبه من أبي دلف وفور حظِّه منها، وكانا يتجاذبان أهدابها، ويجريان فيما لا يفطن له حاضرهما.»[٥٦]

ولعلَّ المناكاة مفاعلة من نكى بمعنى أتى عملًا لإغضاب الغير وقهره، ومنه «ضعيف النكاية أعداءه»، فيظهر أنه كان من حيلهم أنهم يتهاجون ويتسابون ويتخاصمون تصنعًا حتى يستلبوا مال الناس؛ ولعلَّ المقامة الدينارية في مقامات البديع — التي تمثل رجلين يتسابَّان بأقبح السباب من هذا الضرب — وقد جمع فيها كل سب كان في عصره من مثل: يا برد العجوز، يا وسخ الكوز، يا درهمًا لا يجوز، يا سَنَة البوس، يا كوكب النحوس ... إلخ. فردَّ عليه الآخر بقوله: يا قَرَّاد القرود، يا لَبود اليهود، يا عدمًا في وجود ... إلخ. وقد ذكر البديع في هذه المقامة أنهما كانا من بني ساسان.

فترى من هذا أن الضرب من الحفاة الذي جرَّ إليه سوء الحالة الاقتصادية، وعدم التوازن الاجتماعي، والإفراط في البؤس بجانب الإفراط في الترف، قد انعكست صورته على الأدب، فأخرج المقامات وغيرها من أدب التكدي، كما أخرج شعرًا كثيرًا في شكوى الزمان وسوء الحال، من مثل ما نراه في شعر ابن لَنْكَك البصري كقوله:

يا زمانًا ألبس الأحـ ـرار ذُلًّا ومهانهْ
لستَ عندى بزمان إنما أنت رمانه
كيف نرجو منك خيرًا والعلا فيك مهانه
أجنونٌ ما نراه منك يبدو أم مجانه

وقوله:

جار الزمان علينا في تصرُّفه وأي دهر على الأحرار لم يَجُرِ
عندي من الدهر ما لو أنَّ أيسره يُلقى على الفَلك الدوَّار لم يَدُرِ

وقوله:

نحن والله في زمان غشوم لو رأيناه في المنام فزِعنا
يصبح الناس فيه من سوء حال حق من مات منهمُ أن يُهَنَّا

... إلخ إلخ.
وله في ذلك الشيء الكثير بين جدٍّ وهزل.

وكانت في هذا العصر مجموعة من الشعراء تمثل صور الحياة الاجتماعية المختلفة؛ فالصَّنَوْبري الحلبي يمثل الترف والنعيم والعيش الرغد، ينعم بالقصر الفخم والحديقة الغناء، ويتغنى بجمال الأزهار وجمال الطبيعة، فله شعر في الورد، وشعر في حديقة يعتز بها ويقول فيها:

لو كنت أملك للرياض صيانة يومًا لمل وطئ اللئام ترابها

وقطع في وصف الورد والنرجس والأقحوان والنمام والسوسن والشقيق والبنفسج والياسمين ... إلخ، ثم غزل قليل.
ويقيم مناظرة بين الورد والنرجس فيقول:

زعم الورد أنه هو أبهى من جميع الأنوار والريحان
فأجابته أعين النرجس الغـ ـض بذلٍّ من فوقها وهوان
أيُّهمَا أَحْسَنُ التورد أم مقـ ـلة ريم من فضة الأجفان؟
أم فماذا يرجو بحمرته الخـ ـد إذا لم يكن له عينان؟!
فزها الورد ثم قال مجيبًا بقياس مستحسَنٍ وبيان
إن ورد الخدود أحسن من عيـ ـن بها صفرة من اليَرَقان

والذي مكَّن له في هذا غناه؛ فقد كان له بمدينة حلب قصر فخم حوله الغروس والرياحين وشجر النارنج، إلى ذوق فني يغني في جمال الأزهار.

يقابله الشاعر ابن لنكك الذي يصور البؤس والفقر وعبث الأقدار، وقد قال فيه الثعالبي: «كانت حرفة الأدب تمسه وتجمشه، ومحنة الفضل تدركه فتخدشه، ونفسه ترفعه، ودهره يضعه.» فأفاض في شكوى الزمان، وجوده، وعجائبه:

نحن من الدهر في أعاجيبِ فنسأل الله صبر أيوبِ
أقفرت الأرض من محاسنها فابك عليها بكاء يعقوبِ

وقد سبق أن ذكرنا بعض شعره في هذا الباب.

وإذا كانت الحياة الاجتماعية بين بائس ومجدود، غنى ذلك نغمةً مرحة في ترفه ونعيمه وزهوره، وغنى هذا نغمة حزينة في بؤسه وفقره وخذلان زمانه له.

والمتنبي يمثل في مجتمعه ما كان من أحداث في الحروب بين الحمدانيين والروم؛ فقد كان شاعر سيف الدولة، وكان شاعرًا فارسًا يغشى الحروب مع سيف الدولة، ويسجل حوادثها تسجيلًا أدبيًّا في النصر والهزيمة، والضرب والطعان والأسر والسبي، فشعره في هذا لمعمعة القتال والمعيشة الحربية.

ثم هو يمثل الأدب الأرستقراطي، فهو يمثل الأدب الذي يعيش على موائد الملوك، فلم يكن يمدح إلا ملكًا أو شبه ملك، وقد ترفع عن مدح الصاحب بن عباد وهو ما هو في منزلته وجاهه. فشعره ينقسم إلى سيفيات في سيف الدولة، وكافوريات في كافور، وعضديات في عضد الدولة؛ ولكنه في مديحه هذا يرفع نفسه إلى مرتبة من يمدحه، فيكون صديقًا أو حبيبًا لا عبدًا مستجديًا؛ فيقول في كافور:

وما أنا بالباغي على الحبِّ رشوة ضَعِيفُ هوى يُبْغَى عليه ثَوَابُ
وما شئتُ إلا أن أدل عواذلي على أن رأيي في هواك صَواب
إذا نلت منك الْودَّ فالمال هيِّن وكل الذي فوق التراب تراب

ويقول في ابن العميد:

تفضلَت الأيام بالجمع بيننا فلما حمدنا لم تُدمْنا على الحمد
فجد لي بقلب إن رحلت فإنني مخلِّف قلبي عند من فَضْلُه عندي

وفي سيف الدولة:

يا أعدلَ الناسِ إلا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخَصم والحَكم

* * *

سيعلم الجمع ممن ضَمَّ مجلسُنا بأنني خيرُ من تسعى به قدَم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صَمَمُ
أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جَرَّاها ويختصم

ونَقَد المجتمع نقدًا مرًّا؛ ولكن لا من ناحية أنه لم يجد ما يأكل كابن لنكك، ولا من ناحية أن مجتمعه في نفسه فاسد كأبي العلاء، ولكن من ناحية أنه وازن بين نفسه وكفايتها في الحرب والأدب وطلب المجد، وبين ملوك زمانه وأمرائه، فرأى أنه أحق بالملك أو بالإمارة منهم، فهجا المكان والزمان والدنيا:

لحا الله ذي الدنيا مناخًا لراكب فكل بعيد الهم فيها معذب

* * *

ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضِخام
وما أنا منهمو بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
فشبه الشيء منجذب إليه وأشبَهُنا بدنيانا الطَّغام

* * *

إذا ما الناس جرَّبهم لبيب فإني قد أكلتهمو وذاقا
فلم أر ودَّهم إلا خداعًا ولم أر دِينهم إلا نفاقًا

* * *

يقولون لي: ما أنت في كل بلدة وما تبتغي؟ ما أبتغي جَلَّ أن يُسْمَى[٥٧]
كأن بنيه عالمون بأنني جلوبٌ إليهم من معادنه اليتما
وما الجمع بين الماء والنار في يدي بأصعب من أن أجمع الجَدَّ والفهما

* * *

وإنـي لَـمِـن قـوم كـأن نـفـوسـهـم بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

ويرى علة فساد المجتمع فساد ملوكه، ولا يصلح للعرب إلا ملوك من العرب، وهو يرشح بذلك لنفسه:

سادات كل أناس من نفوسهم وسادة المسلمين الأعبد القَزَمُ
أغاية الدين أن تحفوا شواربكم يا أمة ضحكت من جهلها الأمم
ألا فتًى يورد الهنديَّ هامته كيما تزول شكوك الناس والتُّهم

* * *

رِدِي حياض الردى يا نفس واتركي حياض خوف الردي للشاء والنَّعَم
إن لم أذرك على الأرماح سائلة فلا دعيت ابن أم المجد والكَرَم
أيملك الملك والأسياف ظامئة والطير جائعة لحم على وضم؟
ميعاد كل رقيق الشفرتين غدًا ومن عصى من ملوك العرب والعجم

فهو بذلك كله ينقد المجتمع ويذم الدهر من ناحيته الشخصية، وهو أنه لم يُنله مقصده.

كما أنه يمثل مجتمعه من ناحية أخرى دقيقة؛ فقد كان في الشام والعراق ومصر بدو وحضر، وتثقف المتنبي ثقافة بدوية وحضرية، وأقام في البدو حينًا وعاش عيشتهم واستفاد من ألفاظهم وأساليبهم، ثم خالط سيف الدولة وكافورًا وعضد الدولة، وأكل على موائدهم، ورأى ترفهم نعيمهم، فكان لذلك صدى في شعره؛ فهو بدوي حضري: بدوي في لفظه وأسلوبه وقوته وجزالته، وفي كثير من معانيه وأوصافه كوصف الخيل والسلاح، حضري في بعض معانيه كوصف الفازة من الديباج عليها صورة ملك الروم وصور وحش وحيوان، ويصف بطيخة من الند في غشاء من خيزران عليها قلادة لؤلؤ وعلى رأسها عنبر قد أدير حولها ... إلخ.

ويحن إلى الأعرابيات، ويتشبب بهن، ويفضلهن على الحضريات:

من الجآذر في زي الأعاريب حمر الحلى والمطايا والجلابيب

* * *

ما أوجه الحضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب
أين المعيز من الآرام ناظرة وغير ناظرة في الحسن والطيب
أفدي ظباء فلاة ما عَرفْن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
لا برزن من الحمَّام مائلة أوراكهن صقيلات العراقيب
ومِنْ هَوَى كل من ليست مموهة تركت لون مشيبي غير مخضوب
ومن هوى الصدق في قولي وعادته رغبت عن شَعَر في الرأس مكذوب

فهو يمثل أيضًا ما كان في عصره من بداوة وحضارة، وبساطة في العيش وتركيب.

وابن حجاج، وابن سكَّرة يمثلان الأدب الشعبي، وحالة العصر في مجونه وهزله، وفساده وانحطاطه، وأدبه المكشوف الذي لا يرعى خلقًا ولا ذوقًا، فكل لفظة مهما تعرَّت وسقطت صالحة لأن تكون في الشعر، وأن تقال في حضرة الملوك والوزراء والقضاة، وتختار فيما يختار للمتأدبين، كما فعل الثعالبي في اليتيمة، وقد سبق بعض القول فيهما.

والشريف الرضي يمثل طبقة الأشراف المثقفة الواسعة العلم، المعتزة بجاهها ونسبها ومنصبها، تعيش عيشة الترف، وتجالس الخلفاء والوزراء من ناحية، وتتصل بحكم منصبها بالشعب — إذ كان نقيب الأشراف — من ناحية أخرى.

فيقول الشعر اعتزازًا بالجاه والنسب، ويخاطب الخليفة القادر:

عطفًا أمير المؤمنين فإننا في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبدًا كلانا في العلاء معرِّق
إلا الخلافة ميَّزتك فإنني أنا عامل منها وأنت مطوق

وهو لمركزه يقيد كثيرًا من أحداث التاريخ العظمى التي شاهدها، وقد شاء القدر أن يكون في مجلس الخليفة الطائع يوم فتك الفرس به، كما كان البحتري في مجلس المتوكل يوم فتك الترك به، وخرج هذا — كما خرج ذاك — هائمًا، وقال «الشريف» في ذلك قصيدته التي مطلعها: «لواعج الشوق تخطيهم وتصميني» وقد تقدمت نبذة منها. وله في ذلك قصيدة أخرى منها:

إن كان ذاك الطود خـــ ـرَّ فبعد ما استعلى طويلًا

* * *

لهفي على ماض قضي ألا ترى منه بديلًا
وزوال مُلْكٍ لم يكن يومًا يقدَّر أن يزولًا

وقال قصيدته الأخرى:

أي طَوْدٍ دُكَّ من أي جبال لقحت أرض بِه بعد حِيَال
ما رأى حيٌّ نزار قبلها جَبَلًا سار على أيدي رجال
عقروا ليثًا ولو هَاهَوا به كان بعد العَقْر أرجي للصِّيالِ

* * *

وكأني خَلَل الغيب أرى نَغْرة من جرحها بعد اندمالِ
وإذا الأعداء عَدُّوك لها سلموا فضلك من غير جدال
لا أضاعوا رابئًا في قلة كلأ المجد وقد نام الكوالي[٥٨]
يوم للشعب دهان من دم والمواضي للمقاديم[٥٩] فوالي

* * *

فاتني منك انتصار بيميني فتلافيت انتصارًا بمقالي

... إلخ.

وقد كانت ثورة البحتري أقوى وأصرح وأعنف، إذ لم تكن النفوس اعتادت «التقية» من كثرة ما أصابها من ظلم.

هذا إلى ما يسجله من أحداث كثيرة من رجال الدولة البويهية.

كما أنه كان شاعر الشيعة يشكو الزمان لعدم إنصافهم، ويعدد مزاياهم واستحاقهم، ويرثي لما أصابهم، ويرثي الحسين ... إلخ، فهو لسان العلويين والطالبيين، وباعث الأمل فيهم في استرداد حقوقهم، ونيل ما فاتهم.

ثم له الناحية الخاصة في حياته، التي يمثل في شعره فيها حياة الأدباء والظرفاء الموسرين من غزل في الحرائر والإماء، من مثل قوله:

وتميس بين مزعفر ومعصفر ومعنبر وممسَّك ومصندل
وإذا سألتُ الوصل قال جمالها جودي، وقال دلالها لا تفعلي

وفي الغلمان على عادة عصره، مثل قوله في غلام لا يحسن التكلم بالعربية:

حبيبيَ ما أزرى بحبك في الحشا ولا غضَّ عندي منك أنك أعجم
بنفسي من يستدرج اللفظ عجمة كما يمضغ الظبيُ الأراك ويبغم

وله الأبيات الكثيرة في وصف الزهور، والسماء والنجوم، وحمامة وفرخيها، والبرق والفجر ... إلخ.

ويظهر أنه كان ضعيف الصحة، مصابًا بالأمراض، ومعرَّضًا للأخطار، فارتاع من الشيب وأكثر من وصفه، وأجاد في مراثي أصدقائه وأقربائه إجادة فائقة، وقد كان صديقًا لكثير من علماء عصره وأدبائهم سبقوه إلى الموت، فخلَّد عواطفه نحوهم في شعر رقيق.

وأبو العلاء المعري في لزومياته ناقد للمجتمع لا لما جناه المجتمع على شخصه كما فعل المتنبي، ولكن لما جناه المجمتع على نفسه.

فالملوك في وضعهم الحقيقي خدَّام الرعية، ولكنهم بالفعل ظالموها ومستغلُّوها:

مُلَّ المُقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعَدَوْا مصالحها وهم أجراؤها

وهؤلاء الولاة المسيطرون على الناس لا عقل لهم، ولا عدل عندهم، شياطين في ثياب ولاة، لا يهمهم جوع الناس إذا ملئت بطونهم، وخَمِرت رؤوسهم:

ساس الأنام شياطين مسلَّطة ... في كل مصرٍ من الوالين شيطان
من ليس يحفلُ خمص الناس كلِّهمُ ... إن بات يشرب خمرًا وهو مِبْطان

وحول هؤلاء الولاة بطانة قد جمدت عواطفهم كأنها الحجارة أو أشد قسوة، لا يرحمون دمعة مظلوم، ولا يجيبون صرخة مستغيث:

يجور فينفي المِلْك عن مستحِقه ... فتُسْكَبُ أسراب العيون الدوامع
ومن حوله قومٌ كأن وجوههم ... صفا لم يُلَيِّن بالغيوث الهوامع

والقضاة لا عقل ولا عدل:

وأي امرئ في الناس أُلْفيَ قاضيًا ... فلم يُمْضِ أحكامًا كحكم سَدوم

وفقهاء، صناعتهم الكلام ولا روح ولا أحلام:

كأن نفوس الناس والله شاهد ... نفوسُ فَرَاشٍ ما لهن حُلوم
وقالوا فقيه والفقيه مموِّهٌ ... وحِلْفُ جِدَال والكلامُ كُلُومُ

ووعَّاظ، يقولون ما لا يفعلون، ويأتون ما ينكرون:

رويدك قد غُرِرْت وأنت حرٌّ ... بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرِّمُ فيكم الصهباء صبحًا ... ويشربها على عَمْدٍ مساء

وشعراء، ليسوا إلا لصوصًا يعدُون على من قبلهم في سرقة أقوالهم، ويعدون على الأغنياء بمديحهم لسلب أموالهم:

وما شعراؤكم إلا ذئاب ... تَلَصَّصُ في المدائح والشباب

أَضَرَّ — لمن تَوَدُّ — من الأعادي وأسرق للمقال من الزباب[٦٠]

وقوم تسودهم الخرافة فيلجئون إلى المنجِّمين والعرَّافين والمعزِّمين، وما لهؤلاء من علم، ولكنها شباك تنصب لاستدرار الأموال من المغفَّلين والمغفَّلات:

متكهِّن ومنجِّم ومُعِّزم وجميع ذاك تحيُّلٌ لمعاش

* * *

لقد بكَرَت في خُفِّها وإزارها لتسأل بالأمر الضرير المنَجِّما
وما عنده علم فيخبرها به ولا هو من أهل الحِجَا فيرجِّما
ويوهم جُهَّال المحلة أنه يظل لأسرار الغيوب مترجما
ولو سألوه بالذي فوق صدره لجاء بمَيْن أو أَرَمَّ وجمجما

* * *

سألت منجِّمها عن الطفل الذي في المهدِ كم هو عائش من دهره
فأجابها مائةٌ ليأخذ درهمًا وأتى الحِمامُ وليدَها في شهره

وبعد أن نقدهم طبقات، من الملوك إلى القضاة إلى الوعاظ إلى التجار إلى النساء، نقدهم جملة، فكل الناس في كل زمان ومكان لا يصلحون إلا للفناء:

وهكذا كان أهل الأرض مذ فُطِروا فلا يَظُنن جهول أنهم فسدوا

* * *

لو غربل الناس كيما يُعدَموا سَقَطًا لما تحصل شيء في الغرابيل
أو قيل للنار: خُصِّي مَنْ جَنى، أكلت أجسادهم وأبت أكل السرابيل

* * *

يحسن مرأى لبني آدم وكلهم في الذوق لا يَعْذُب
ما فيهمُ بَرٌّ ولا ناسك إلا إلى نفع له يَجْذِب

أفضل من أفضلهم صخرةٌ لا تظلم الناس ولا تكذب

وسبب فسادهم أنهم منحوا العقل فلم يُصغوا إليه ولم يلتفتوا له، وتجاذبَهم عقلٌ يُرْشد وطبعٌ يُغْوِي، فجروا وراء طبعهم وأهملوا عقلهم:

فأوسِعْ بني حواء هجْرًا فإنهم يسيرون في نهج من الغدر لاحِب
وإن غيَّر الإثمُ الوجوهَ فما ترى لدى الحشر إلا كلَّ أسودَ شاحِبِ
إذا ما أشار العقل بالرشد جرهم إلى الغي طبعٌ أخذه أخذ ساحب

* * *

واللب حاول أن يهذب أهله فإذا البرية ما لها تهذيب
من رام إنْقاء الغراب لكي يرى وَضَح الجناح أصابه تعذيب

* * *

إلى الله أشكو مهجة لا تطيعني وعالمَ سوء ليس فيه رشيد
حجًى مثلُ مهجور المنازل داثرٌ وجهلٌ كمسكون الديار مشيد

* * *

العقل إن يضعف يكن مع هذه الـ ـدنيا كعاشقِ مومِسٍ تُغويه
أو يَقْوَ فهي له كحرة عاقل حسناء يهواها ولا تُهْوِيه

* * *

فطبعك سلطان لعقلك غالبٌ تداوله أهواؤه بالتشصُّص
سقيت شرابًا لم تهنَّأ ببرده فعنِّيت من بعد الصدى بالتغصُّص

وهكذا أفاض في نقد المجتمع ومظاهره ونظمه وأخلاقه، وكان في كل ذلك موفقًا كل التوفيق، ومظهر توفيقه أنه استطاع في مهارة أن يدرك عيوب المجتمع في جملتها وتفصيلها، ويعالج ظواهرها، ويعمق في النفس الإنسانية في دقة وتحليل، فيصل إلى دخائلها.

وأبو حيان التوحيدي يمثل في أدبه وكتابته علاقة الأدباء والعلماء بالولاة والوزراء والأغنياء، فإن أُعطوا حسنت حالهم، وإلا ساء عيشهم، إذ لا مورد آخر لهم. وقد كان أبو حيان غير موفق في استجدائه؛ ولعل سبب ذلك أنه لم يكن لبقًا ولا ماكرًا إلى طول لسان، وإقذاع في الهجو لمن لا يعطيه، فعاش بائسًا فقيرًا، ومثَّل ذلك في أدبه فيقول: «فقدت كل مؤنس وصاحب، ومرفق ومشفق، ووالله لربما صليت في المسجد، فلا أرى إلى جنبي من يصلي معي، فإن اتفق فبقال أو عصار أو نداف أو قصاب، ومن إذا وقف إلى جانبي أسدرني بصنانه، وأسكرني بنتنه؛ فقد أمسيت غريب الحال، غريب النحلة، غريب الخلق، مستأنسًا بالوحشة، قانعًا بالوحدة، معتادًا للصمت، ملازمًا للحيرة، محتملًا للأذى، بائسًا من جميع ما ترى، متوقعًا ما لا بد من حلوله، فشمس العمر على شفا، وماء الحياة إلى نضوب، ونجم العيش إلى أفول.»

وقد خاب ظنُّه فيمن أملهم من مثل ابن العميد، وابن عباد، وابن سعدان، وأبي الوفاء البوزنجاني، فملأ كتبه: «الصداقة والصديق»، و«الإمتاع والمؤانسة»، و«المقابسات» بالشكوى منهم، ثم لم يحظ بطائل.

هذا هو الأدب في ذلك العصر يصور المجتمع في شتى نواحيه.

هوامش

(١) المسعودي في كتابه التنبيه والإشراف: ص٤٠٠.

(٢) تجارب الأمم: ٦ / ٢٥٣.

(٣) نفح الطيب: ٢ / ١٦٦، ويلاحظ عليه أن قتل المقتدر كان سنة ٣٢٠ لا سنة ٣١٧ كما ذكره.

(٤) الأوراق: أخبار الراضي والمتقي للصولي ص١٩٥.

(٥) انظر معجم ياقوت في مادتي الثرايا والتاج.

(٦) القلع نوع من المعدن ينسب إليه الرصاص.

(٧) انظر تاريخ الخطيب: ١ / ١٠٠ وما بعدها طبعة مصر.

(٨) مروج الذهب ٢ / ٣٣٨ وما بعدها.

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) ابن الجوزي في المنتظم.

(١١) ابن خلكان: ١ / ٥٣٠.

(١٢) نشوار المحاضرة.
(١٣) ياقوت.
(١٤) كتب طرفًا من ذلك الموشى.
(١٥) يتيمة الدهر: ٢ / ١٠٦.
(١٦) الصابي.
(١٧) في هذا دليل على استعمال الصك أو الشيك في ذلك الوقت.
(١٨) الهمداني: مخطوط بباريس.
(١٩) اليتيمة: ١ / ٢٨٢.
(٢٠) ابن خلكان: ١ / ٤٦٢.
(٢١) اليتيمة: ١ / ١٩–٢١.
(٢٢) الواحدي على المتنبي.
(٢٣) انظر تفصيل ذلك في خطط المقريزي، والنجوم الزاهرة.
(٢٤) فوات الوفيات ١ / ١٣٨.
(٢٥) المقريزي: ١ / ٤١٣.
(٢٦) انظر تفصيل ذلك في المقريزي: ١ / ٤١٤ وما بعدها.
(٢٧) المقريزي: ١ / ٤٣٢، ٣٨٥.
(٢٨) ١ / ٣٨٤.
(٢٩) ابن خلكان ٢ / ٤٩٩.
(٣٠) المقريزي: ١ / ٨٥.
(٣١) تاريخ الوزراء: ٣٢٣.
(٣٢) ابن خلكان ١ / ٣٧٢.
(٣٣) انظر العقد الفريد، الجزء الأول في باب السلطان.
(٣٤) ابن خلكان: ١ / ٤٣١.
(٣٥) الإمتاع والمؤانسة ١ / ٣١.
(٣٦) المقابسات ص٢١٩.
(٣٧) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ١٨٣.
(٣٨) انظر المصدر نفسه.
(٣٩) الموشى ص٩٣ وما بعدها باختصار.

(٤٠) عنوانه رسالة جامعة لفنون نافعة في شراء الرقيق وتقليب العبيد لابن بطلان الرقيق النصراني، عاش في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، والكتاب مخطوط منه صورة فوتوغرافية في مكتبة الجامعة.

(٤١) في كتابه النساء.

(٤٢) الإمتاع والمؤانسة: ٢ / ٨٢ ما بعدها.

(٤٣) الطبري في سيرة الأمين.

(٤٤) الحيوان جزء أول.

(٤٥) انظر حضارة الإسلام في القرن الرابع ٢ / ١٣٥.

(٤٦) الإمتاع: ٢ / ١٧٤.

(٤٧) المصدر نفسه: ص١٧٨.

(٤٨) مثل:

يا من تعمم فوق رأس فارغ ... بعمامة مَرَوية بيضاء
حسنت وقُبِّح كل شيء تحتها ... فكأنها نور على ظلماء
لما بدا فيها أطلت تعجبي ... من شر شيء في أجلِّ إناء
لو أنني مُكِّنت مما أشتهي ... وأرى، من الشهوات والآراء
لجعلت موضِعك الثرى وجعلتها ... في رأس حرٍّ من ذوي العلياء

(٤٩) مثل:

قل للشريف المنتمي ... للغرِّ من سرواته
آبائه وجدوده ... والزهر من أماته
وهو الوضيع بنفسه ... وعيوبه وهناته
لا تجرين من الفخا ... ر إلى مدى لم تأته
شاد الألى لك منصبًا ... قوَّضت من شرفاته
إن الشريف النفس ليـ ... ـست تلك من فعلاته
والعود ليس بأصله ... لكنه بنباته
وأحق من نكسته ... بالصفع من دوجاته

من مجده من غيره وسفاله من ذاته

... إلخ.

(٥٠) كقوله في وصف تمر:

أما ترى التمر يحكي في الحسن للنظَّار
مخازنًا من عقيق قد قمعت بنضار
كأنما زعفران فيه مع الشهد جاري
يشف مثل كئوس مملوءة من عقار

(٥١) كالذي يشكو من الزمان حظه، فيقول:

في كل يوم لنا في الدهر معركة هامُ الحوادث في أرجائها قلق
حظي من العيش أكل كله غصص مر المذاق وشرب كله شرق

(٥٢) انظر نماذج منها كثيرة في كتب الثعالبي.

(٥٣) يريد بالبيضاء السوداء بدليل ما بعدها، كما ننادي نحن الأسودَ: بيا أبيض.

(٥٤) الإمتاع والمؤانسة: ٢ / ١٧٥.

(٥٥) يقول في البيت الأخير: إن ذوي الثروة إذا وقع أحدهم في يد قطاع الطريق وأحب التخلص قال: إني من بني ساسان.

(٥٦) يتيمة: ٣ / ١٧٥.

(٥٧) يريد قتل الولاة والاستيلاء على ملكهم.

(٥٨) الرابئ: الناشئ. الكوالي: الحراس.

(٥٩) مقاديم: جمع مقدام.

(٦٠) الزباب: الفأر العظيم.